معارج الوصول

إلى

معاني ثلاثة الأصول

كتبه

أبو يوسف جميل بن محمد البساتيني المصري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ نَحْمَدُه، وَنستَعِيْنُه، وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ شُرُوْرِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِه اللهُ، فَلا مُضِلَّ لَه، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَه، وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيْكَ لَه، وَأشْهَدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُه وَرَسُوْلُه –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَسَلَّمَ–

أَمَّا بَعْــدُ: فإن من أعظم ما يمن الله به على عباده، أن يرزقهم فهم المعتقد الصحيح، والمنهج القويم الذي كان عليه النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأصحابه الأبرار –رضي الله عنهم أجمعين–، نسأل الله سبحانه الهداية إليه وفيه، وأن يجنبنا الهوى والضلال.

من أجل ذلك أحببت أن أشارك إخواني، وأبنائي بسهم في بيان جزء من معاني ثلاثة الأصول للإمام المجدد شيخ

الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله–، وهو ممن نفع الله به المسلمين في زمنه، وإلى يومنا هذا، فقد فتح الله عليه فتحا عظيما، وبصره بالمعتقد الصحيح والمنهج السديد، فكان –رحمه الله– سيفا مسلولا على الشرك وأهله، ونصر الله به الدين، ومكن له ولدعوته، نسأل الله أن يمكن لعباده المخلصين الصادقين، وأن ينصرهم ويخذل أعدائهم، فهو نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف –رحمه الله-:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

---

(١) مشروعية الافتتاح بالبسملة

افتتح المؤلف –رحمه الله- هذا المتن بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، وهذا الذكر هو أعظم ما يفتتح به الكتب والرسائل اقتداءً بكتاب الله وبسنة الأنبياء والنبي محمد – عليهم الصلاة والسلام- فقد كانوا يفتتحون رسائلهم بهذا الذكر العظيم فقد افتتح به نبي الله سليمان –صلى الله عليه وسلم- رسالته إلى ملكة سبأ كما دل على ذلك كلام ربنا –سبحانه وتعالى- وهو أصدق القائلين قال تعالى{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }

وقد افتتح النبي –صلى الله عليه وسلم– رسائله إلى الملوك والعظماء أيضا بهذا الذكر العظيم

وقد جاءت الأدلة على مشروعية (بسم الله) عند دخول المسجد والخروج منه وعند الوضوء وعند الذبح وعند دخول الخلاء وعند الجماع وعند ركوب الدابة وركوب البحر وعند النوم وعند الطعام والشراب وعند الخروج من البيت وعند دفن الموتى وعند الرقية وعند الصباح والمساء وعند الغزو وغير ذلك من أنواع العبادات والمباحات.

بيان بعض معاني البسملة

وهذا الذكر قد اشتمل على معاني لو تدبرها المسلمون لكفتهم

ف(بسم الله) جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره فعل أو مصدر، وكلاهما صحيح، فكل فعل لا بد له من مصدر،

فقولك أبدأ بسم الله كقولك بسم الله ابتدائي، فكلاهما استعانة وتبركا باسم الله على الفعل الذي تقوم به

فالبسملة

فيها: الاستعانة والتبرك باسم الله –سبحانه وتعالى–

وفيها: إثبات الاسم لله –عز وجل–، وأن له أسماء ذكر منها في البسملة الرحمن الرحيم، وأخبر سبحانه في أكثر من آية في كتابه أن له أسماء كلها حسنى، فقال تعالى{ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [الأعراف ١٨٠].

فأسماء الله كثيرة لا يعلم عددها إلا هو –سبحانه وتعالى–

دل على ذلك السنة المطهرة

قال البخاري –رحمه الله– حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ ، عَنِ الأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ،

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ».

وجاء عند الإمام أحمد وغيره عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، **أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا ؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا.

وفيها: إثبات الصفات لله –عز وجل-؛ لأن إثبات الأسماء يدل على إثبات الصفات، فكل اسم يشتق منه صفة، فالرحمن يشتق منه صفة الرحمة، والعظيم يشتق منه صفة العظمة

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ [بدائع الفوائد] :" أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلا ومصدرا ونحو السميع البصير القدير يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو{ قد سمع الله }[المجادلة]، { وقدرنا فنعم القادرون }[المرسلات] هذا إن كان الفعل متعديا، فإن كان لازما لم يخبر عنه به نحو الحي بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حي ".

وقال ـ رحمه الله ـ :" لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض

المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى المضل الفاتن الماكر تعالى الله عن قولهم، فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها ".

وقال العلامة العثيمين ـ رحمه الله ـ [شرح السفارينية] :" والصفة لا يشتق منها اسم، وقد مر علينا في القواعد المثلى: أن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفةٍ يشتق منها اسم ".

قال تعالى { قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً } [الأسراء ١١٠].

وقال تعالى { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى } [طه ٨].

وقال تعالى { هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الحشر ٢٤].

دل مضمون هذه الآيات على أن الاسم للمسمى، فقد يذكر الاسم ويراد به المسمى، وقد يذكر ولا يراد به المسمى، والحقيقة أن الاسم للمسمى، وليس هو المسمى على الإطلاق، ولا غير المسمى على الإطلاق .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ [مجموع الفتاوى ٢٠٦/٦] :" **وَأَمَّا الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ " الِاسْمَ لِلْمُسَمَّى " كَمَا يَقُولُهُ أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَهَؤُلَاءِ وَافَقُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَالْمَعْقُولَ.** قَالَ اللَّهُ تَعَالَى{ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } وَقَالَ{ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى }. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا "، وَقَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" إنَّ لِي خَمْسَةَ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَد وَالْمَاحِي وَالْحَاشِرُ وَالْعَاقِبُ "، وَكِلَاهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: أَهُوَ الْمُسَمَّى أَمْ غَيْرُهُ ؟ فَصَّلُوا؛ فَقَالُوا: لَيْسَ هُوَ نَفْسَ الْمُسَمَّى، وَلَكِنْ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى، وَإِذَا قِيلَ إنَّهُ غَيْرُهُ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لَهُ، فَهَذَا بَاطِلٌ، فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ قَدْ يَتَكَلَّمُ بِأَسْمَاءِ نَفْسِهِ فَلَا تَكُونُ بَائِنَةً عَنْهُ، فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ وَأَسْمَاؤُهُ مِنْ كَلَامِهِ، وَلَيْسَ كَلَامُهُ بَائِنًا عَنْهُ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ الِاسْمُ نَفْسُهُ بَائِنًا مِثْلُ أَنْ يُسَمِّيَ الرَّجُلُ غَيْرَهُ بِاسْمِ أَوْ يَتَكَلَّمَ بِاسْمِهِ، فَهَذَا الِاسْمُ نَفْسُهُ لَيْسَ قَائِمًا بِالْمُسَمَّى؛ لَكِنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ الْمُسَمَّى فَإِنَّ الِاسْمَ مَقْصُودُهُ إظْهَارُ " الْمُسَمَّى " وَبَيَانُهُ ".

البسملة ترد على عدد من طوائف أهل الضلال

ومن خلال هذه المعاني نجد أن في البسملة رد على عدد من فرق الضلال

فترد على **الجبرية** إذ لو كان العبد مجبورا لما صح أن يستعين بمن أجبره على ما جبره عليه

وفيها رد على **القدرية** إذ لو أن مشيئة العبد مستقلة وليس لله دخل فيها لما احتاج أن يستعين بالله لتحصيل ما يشاء

وفيها رد على **الصوفية** الذين يجيزون الاستعانة بغير الله ففي البسملة صرف الاستعانة لله وما يصرف لله لا يجوز صرفه لغيره، ومن أجاز الاستعانة بالمخلوق فقد جعل للمخلوق دخلا في مشيئة الخالق وهذا شرك بين إذ أن الإعانة من مشيئته

وفيها رد على **الجهمية والأشعرية** الذين يعطلون أسماء الله وصفاته.

اعْلمْ رَحِمَكَ الله أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَع مَسَائِل (٢)

التنبيه على وجوب تعلم أربع مسائل

٢) أي: كن على بصيرة وإدراك تام؛ رجاء رحمة ربك ونيل مرضاته، أنه يجب علينا معاشر المسلمين تعلم أربع مسائل، وهذا أسلوب المعتني المشفق بقراءه ومستمعيه، فما أحسن أن يشفق المعلم بطلابه، ويرحمهم لكي يحظى بالثمرة والنفع الطيب ويجد القبول،

فليتحلى كل معلم بالأخلاق الحميدة والتلطف بطلابه فلا يكن فظا غليظا وليكن متواضعا لين الجانب فما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه.

المسألة الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ. (٣)

العلم بمعرفة الله والنبي ودين الإسلام

٣) أي: أُولى هذه المسائل هو العلم، ويقصد به العلم الموصل إلى معرفة ما خلقنا الله لأجله، وهي عبادته وحده لا شريك له قال تعالى{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }، فالعلم الموصل إلى ذلك هو معرفة الله ومعرفة نبيه –صلى الله عليه وسلم– ومعرفة دين الإسلام، وكل هذا يجب معرفته من خلال الأدلة من الكتاب والسنة، وكذلك الأدلة الكونية إلا أن أدلة الكتاب والسنة هي الأصل لكل مسلم

فهذا العلم لا يصح إسلام العبد إلا به، فيجب على العبد معرفته بدليله؛ لأنه لا ينفع فيه التقليد، ومجرد الآراء

والأقاويل، فالعلم قال الله، وقال رسوله، وقال الصحابة هذا هو العلم وعلى ذلك يبنى.

وهذا العلم هو الذي تحيا به القلوب، والناس أحوج إليه من الطعام والشراب، فليت الناس يشتغلون به كاشتغالهم بالطعام والشراب فللأسف تجد الناس في انهماك شديد في علوم الدنيا وأمورها وما يصلحون به أطعمتهم وأشربتهم، وعلى العكس تماما تجدهم في بعد شديد عن هذا العلم النافع إلا من رحم الله وقليل ما هم، فالحرص الحرص على هذا العلم وتعلمه وتفهمه.

فمعرفة الله تتطلب معرفة كل ما هو له من الربوبية والعبودية والأسماء والصفات

ومعرفة النبي –صلى الله عليه وسلم– تتطلب معرفة حقه علينا وأوامره ونواهيه

ومعرفة دين الإسلام تتطلب معرفة فضله وأحكامه وما يضاده ويناقضه فالذي لا يعرف الشر وقع فيه فلابد من معرفة الشيء وضده

وكما قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه   ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فليس معرفة أحكام الإسلام تكفي لوقاية المسلم ونجاته بدون معرفة ما يضاده

كما قيل :

الضد يظهر حسنه الضد   وبضدها تتميز الأشياء

المسألة الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ (٤)

العمل بالعلم

٤) فالعلم لابد أن يكون معه العمل، فعلم بدون عمل وبال، وعمل بدون علم باطل وهباء، فالعلم لابد أن يتبعه العمل فترك العمل منه ما هو كفر ومنه ما هو كبيرة ومنه ما هو ذنب دون الكبيرة ومنه ما هو دون ذلك

قال الله تعالى{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ }

هذا دليل على أن **الناس من حيث العلم ثلاثة أصناف**:

فصنف أنْعَم الله عليه

وصنف مغضوب عليه

وصنف ضال

أما الصنف الذي أنعم الله عليه فهم أهل الهداية الذين هداهم الله صراطه المستقيم هداهم إليه عملا وفيه فهما وعلما وإدراكا فجمعوا بين العلم والعمل نسأل الله أن يجعلنا منهم.

وأما الصنف المغضوب عليهم أمثال اليهود فقد أوتوا العلم ولم يعملوا به، فمن لم يعمل بعلمه من المسلمين ففيه شبه من اليهود

وأما الصنف الضال فأمثال النصارى يعملون بدون علم، فمن عمل بدون علم ففيه شبه من النصارى

روى الإمام مسلم من حديث أسامة بن زبد قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا

كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ ».

فهذا جزاء من عرف المعروف وأمر به ولم يعمل به فكيف بمن لم يأمر ولم يعمل فالأمر خطير نسأل الله السلامة والعافية.

المسألة الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ. (٥)

الدعوة إلى العلم

٥) مع العلم والعمل لابد من الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالدعوة إلى الله من أحسن العبادات وأفضل القربات.

قال تعالى{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[فصلت ٣٣]

وقد أمر الله سبحانه في أكثر من موضع من كتابه بالدعوة

قال تعالى{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }[النحل ١٢٥]

وقال تعالى{ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ}[الحج ٦٧]

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً **فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ** وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ.

فالعلم لابد أن يعقبه العمل ثم الدعوة إليه، والدعوة إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– من أعظم وأرفع العبادات فيجب أن تكون طريقتها موقوفة على

الدليل وعلى منهاج النبي –صلى الله عليه وسلم– وعلى طريقة أصحابه –رضي الله عنهم أجمعين– فوسائل الدعوة توقيفية بلا شك فمن اخترع طريقة ليس عليها دليل فقد ابتدع وأحدث عبادة لم يشرعها الله و لا رسوله –صلى الله عليه وسلم–

وكيفية الدعوة ووسائلها تتلخص في خمس مسائل:

١ – العلم بما يدعوا إليه

قال الله تعالى{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }[يوسف ١٠٨]

فمن أراد أن يكون على نهج النبي –صلى الله عليه وسلم– ويكون من المتبعين بإحسان، فليكن على علم وبصيرة بما يدعوا إليه .

فالدعوة من غبر علم دعوة فاسدة دعوة تضاد منهج الرسول –صلى الله عليه وسلم– ومنهج أصحابه، وتعرض صاحبها لعذاب الله ومقته قال الله تعالى {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النور ٦٣]

فلابد من العلم أولا حذرا من عقاب الله وعذابه

قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد ١٩]

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وفي حديث وفد عبد القيس أنهم رحلوا ليتعلموا من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ثم يخبروا من وراءهم

ففي الصحيحين من حديث شُعْبَةَ – عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ يَدَيِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ تَسْأَلُهُ عَنْ نَبِيذِ الْجَرِّ فَقَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « مَنِ الْوَفْدُ أَوْ مَنِ الْقَوْمُ ». قَالُوا رَبِيعَةُ. قَالَ « مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ النَّدَامَى ». قَالَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَىَّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ وَإِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلاَّ فِى شَهْرِ الْحَرَامِ **فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ**. قَالَ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ. قَالَ أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ. وَقَالَ « هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ ». قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ « شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسًا مِنَ الْمَغْنَمِ ». وَنَهَاهُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ

وَالْحَنْتَمِ وَالْمُزَفَّتِ. قَالَ شُعْبَةُ وَرُبَّمَا قَالَ النَّقِيرِ. قَالَ شُعْبَةُ وَرُبَّمَا قَالَ الْمُقَيَّرِ. وَقَالَ « **احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوا بِهِ مِنْ وَرَائِكُمْ** ».

فتأمل أمرهم بحفظ العلم ثم الدعوة إليه

وبهذا يتبين ضلال فرقتي الإخوان المفسدين والدعوة والتبليغ ففرقة تقول: كتل ثم ثقف، والأخرى تقول: كتل من غير ثقافة، فلا هذه اعتنت بالعلم ولا هذه اعتنت بالعلم وحزبوا الناس لأفكارهم وأهوائهم نسأل الله السلامة والعافية.

٢ – البدء بما بدء به السابقون الأولون

المسألة الثانية: البدء بما بدأ به السابقون الأولون فإذا أردنا أن نكون في دعوتنا على منهج السابقين الأولين فعلينا أن نبدأ بما بدأوا به وهو تعلم التوحيد والإيمان أولا والدعوة إليه أولا ففي حديث وفد عبد القيس الذي مر ذكره ما يبين ذلك فحين طلبوا من النبي –صلى الله عليه وسلم– أن

يعلمهم بدأ بتعلمهم الإيمان الذي يتضمن أولا تعلم الشهادتين .

واعلم أنهم كانوا مسلمين وبدأ بتعلمهم الإيمان والتوحيد، واعلم أيضا أنهم كانوا يفهمون اللغة العربية فلا يحتاجون إلى كبير جهد لكي تعلمهم وتفهمهم المعاني مثل أكثر عوام المسلمين اليوم، فلا يلبس عليك ملبس ويقول: المسلمون الآن ليسوا في حاجة إلى تعلم التوحيد لأنهم موحدون كما خرج ابن حسان المصري –أخزاه الله– يقول:" لا يوجد عندنا شرك قبور فلا داعي للحديث عن شرك القبور " هكذا يقول مع علمه أن الشرك منتشر حوله عند البدوي والحسين وغيرهما، حتى أن كثيرا من عوام المسلمين يجهلون كثيرا من أنواع الشرك ويواقعوها

ولو فرض صحة قوله بعدم وجود الشرك في واقعه، هل يقال لا داعي للحديث عنه وأن الحديث عنه يحدث فتنة، لا

يقول هذا الكلام إلا من أصيب بالخبل، فليحذف من كتاب الله وسنة رسول الله كل نهي عن الشرك والحديث عنه، هذا كذب وافتراء على الله لم يسبقه إليه إلا أهل الغواية وأصحاب الشيطان الرجيم.

روى الإمام ابن ماجة وغيره من حديث جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ ، **فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا.**

فتأمل هذا هو منهج الصحابة –رضي الله عنهم– كانوا يتعلمون الإيمان والتوحيد قبل أن يتعلموا القرآن، وهذا ما تخالفه هاتان الفرقتان الضالتان فرقة الإخوان المفسدين وفرقة الدعوة والتبليغ، وكذلك أدعياء السلفية فهم وإن دعوا إلى التوحيد فهم يدعون إليه إجمالا ومن منطلق أهوائهم وأفكارهم التي هي من سبيل الشيطان الرجيم

وفي الصحيحين من حديث ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما قَالَ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُعَاذًا نَحْوَ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ **فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى** فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا صَلُّوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ.

ذكره البخاري تحت عنوان (باب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)

وذكره ابن منده في كتاب الإيمان تحت عنوان (ذكر أول ما يدعى إليه العبد وهو التوحيد والمعرفة ثم الصلوات الخمس ثم الزكاة)

وقال مسلم (بَاب الدُّعَاءِ إِلَى الشَّهَادَتَيْنِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ)

فالبدء بتعلم التوحيد والدعوة إليه هو ما كان عليه النبي – صلى الله عليه وسلم– وأصحابه وخير الهدي هديهم وشر الأمور مخالفة هديهم من عمل عملا ليس عليه أمرهم فهو رد، ومن أحدث في أمرهم ما ليس منه فهو رد ومردود على صاحبه مهما كان قدره ومهما كانت منزلته

فالبدء بتعلم التوحيد وتعليمه للناس هو أعظم ما يسلكه الداعي إلى الله كيف لا وهو أصل الدين، وهو الذي من أجله بعث الله المرسلين، فدعوة الأنبياء والمرسلين جميعا كانت إلى توحيد رب العالمين، فلسبيلهم فلنتبع إن كنا نحب أن نحشر معهم، فلا لسبيل البنا ولا لسبيل ابن إلياس ولا لسبيل التكفريين ولا لسبيل الصوفيين ولا لسبيل الحزبيين؛ بل إلى سبيل الأنبياء والمرسلين والسابقين الأولين

فنحن لهم متبعون وبهديهم مقتدون وعلى نهجهم سائرون، فهم نعم من اتبعوا ونعم من يقتدى بهم

فالتوحيد لا يهون من شأنه إلا مخادع، ولا يعدل عن الدعوة إليه مشتغلا بغيره إلا ضال طمس الله على بصيرته، فالدعوة إليه ليست مفسدة ولا فتنة، ومن قال غير ذلك فقد أعمى الله بصره وبصيرته.

٣ – اعتبار المصالح والمفاسد كما اعتبرها السابقون الأولون

المسألة الثالثة اعتبار المصالح والمفاسد كما اعتبرها السابقون الأولون، فإذا أردنا أن نكون في دعوتنا على منهج السابقين الأولين فعلينا أن نحقق هذه المسألة ونزنها بميزان السابقين ليس بميزان أهوائنا وعقولنا

فيجب علينا إذا أردنا أن نبلغ الناس وندعوهم أن نراعي مداركهم وأفهامهم وأحوالهم فالناس أكثرهم يجهلون التوحيد

والسنة، فهل من الحكمة أن نترك الناس على جهلهم بالتوحيد والسنة وندعوهم إلى ما هو دون ذلك، ففرق الضلال اليوم قد كثرت، وكل فرقة تتخذ منهجا خاصا لها تتعصب له وتدعوا إليه؛ لكن ما هو الميزان الحق الذي ينبغي علينا أن نزن به الحق من الباطل لا شك أنه ميزان السابقين الأولين الذي قد أمرنا الله وحضنا على اتباعه قال تعالى{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ }، وقال تعالى{ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

فالفرق والأحزاب الموجودة الآن أمثال الإخوانيين والتبلغيين وأدعياء السلفية لا شك أنهم بعيدون عن هذا الميزان الحق الذي أمرنا الله باتباعه، فالدعوة إلى التوحيد والسنة في

زماننا بل في كل زمان لابد من الدندنة بها وجعلها الأصل الذي يبنى عليه كل فرع، فمنشأ ضلال الفرق كلها، وأسباب انحراف أكثر المسلمين لا شك أنه بسبب الابتعاد عن فهم التوحيد والسنة بفهم السابقين الأولين، فمن أراد أن يكون من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فعليه بطريق السابقين الأولين علما وقولا وعملا واعتقادا، وليعلم أن كل خير فيما سبقونا إليه، وكل شر فيما لا يسبقونا إليه

روى البخاري وغيره من حديث الأَسْوَدِ قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ الزُّبَيْرِ كَانَتْ عَائِشَةُ تُسِرُّ إِلَيْكَ كَثِيرًا فَمَا حَدَّثَتْكَ فِي الْكَعْبَةِ قُلْتُ قَالَتْ لِي قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَا عَائِشَةُ **لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ**– قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِكُفْرٍ – لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ

ذكره البخاري تحت عنوان (باب مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الاِخْتِيَارِ مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ)

تأمل لقد ترك النبي –صلى الله عليه وسلم– بناء الكعبة على أساس إبراهيم خشية أن ترتد قريش وغيرهم من العرب لمكانة الكعبة في نفوسهم، فترك النبي –صلى الله عليه وسلم– هدم الكعبة وبناءها على أساس إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– لدرء هذه المفسدة

وروى البخاري ومسلم من حديث شُعْبَةَ قَالَ سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– الأَنْصَارَ فَقَالَ « أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ ». فَقَالُوا لاَ إِلاَّ ابْنُ أُخْتٍ لَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « إِنَّ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ». فَقَالَ « إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ وَإِنِّى أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَرْجِعُونَ

بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى بُيُوتِكُمْ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ ».

وقال البخاري:" باب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لاَ يَفْهَمُوا.

وَقَالَ عَلِيٌّ حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ."

وروى من حديث أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَمُعَاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ يَا مُعَاذُ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلاَثًا ، قَالَ : مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا قَالَ إِذًا يَتَّكِلُوا وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا.

ورواه أيضا مسلم

وروى مسلم من حديث عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً.

فهذه الأدلة التي سقناها فيها الدلالة على أنه لا بد من وضع الشيء في موضعه

وفيها جواز ترك إنكار المنكر إذا غلب على الظن وقوع ما هو أنكر منه

وفيها جواز مؤالفة القلوب الهلعة بتمييزها بزيادة في العطاء

وفيها جواز كتمان العلم للمصلحة

فعلى الداعي أن يراعي المصالح لأن مهمته الإصلاح ولا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها

فما لا يفهمه السامع أو لا يعقله لا تحدث به درأ للفتنة

فأهل الأهواء ضلوا الناس من هذا القبيل يحدثون الناس بما لا تدركه أفهامهم يحدثونهم بالإجمالات والإطلاقات ويشبهون عليهم الحق، ولذلك اشتد نكير السلف على أهل البدع والأهواء وحاربوهم وحذروا منهم أشد تحذير لأنهم أضر على المسلمين من اليهود والنصارى

وقال تعالى{ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ }[الأنعام]

وفي هذه الآية دلالة على أن ما يفضي إلى الشر ولو كان مشروعا يجب الكف عنه ولا يجوز التحدث به[1]

---

[1] - يقول العلامة ابن عثيمين –رحمه الله- [القول المفيد ١٩٣/٢]:" فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس، وإن كانوا محتاجين لذلك؟
أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم بطريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويدا رويدا؛ حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.
ومثل ذلك: العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس، ويستنكرونها؛ فإننا نعمل بها، ولكن بعد أن نخبرهم بها؛ حتى تقبلها نفوسهم، ويطمئنوا إليها ".
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- [مجموع الفتاوى ٥٩/٦]:" فَإِذَا كَانَ الْعِلْمُ بِهَذِهِ الْمَسَائِلِ قَدْ يَكُونُ نَافِعًا وَقَدْ يَكُونُ ضَارًّا لِبَعْضِ النَّاسِ تَبَيَّنَ لَك أَنَّ الْقَوْلَ قَدْ يُنْكَرُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ وَمَعَ شَخْصٍ دُونَ شَخْصٍ ؛ وَإِنَّ الْعَالِمَ قَدْ يَقُولُ الْقَوْلَيْنِ الصوابين كُلَّ قَوْلٍ مَعَ قَوْمٍ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ ؛ مَعَ أَنَّ الْقَوْلَيْنِ صَحِيحَانِ لَا مُنَافَاةَ

يقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله-:" يقول تعالى ناهيا لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو ".

٤ – لا ضرورة لفعل المحرم من أجلها

هذه هي المسألة الرابعة: لا ضرورة لفعل المحرم من أجل هداية الناس ودعوتهم وهي متممة لما قبلها ففعل المحرمات من أجل إصلاح الناس ودعوتهم يعود بمفسدة عظيمة وليس في ذلك مصلحة

بَيْنَهُمَا ؛ لَكِنْ قَدْ يَكُونُ قَوْلُهُمَا جَمِيعًا فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ ؛ فَلَا يَجْمَعُهُمَا إلَّا لِمَنْ لَا يَضُرُّهُ الْجَمْعُ ".

قال تعالى{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }[المائدة ١٠٥]

أي: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا صلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم، ولم يهتد إلى الدين القويم، وإنما يضر نفسه. [٢]

---

[٢] - ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- من فوائد هذه الآية [مجموع الفتاوى ١٤/٤٨٢]:" الْخَامِسُ " **أَنْ يَقُومَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ مِنْ الْعِلْمِ وَالرِّفْقِ وَالصَّبْرِ وَحُسْنِ الْقَصْدِ وَسُلُوكِ السَّبِيلِ الْقَصْدِ** فَإِنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ : { عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ } وَفِي قَوْلِهِ : { إذَا اهْتَدَيْتُمْ } . فَهَذِهِ خَمْسَةُ أَوْجُهٍ تُسْتَفَادُ مِنْ الْآيَةِ لِمَنْ هُوَ مَأْمُورٌ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَفِيهَا الْمَعْنَى الْآخَرُ . **وَهُوَ إقْبَالُ الْمَرْءِ عَلَى مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِعْرَاضُهُ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ** كَمَا قَالَ صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ : { مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ } وَلَا سِيَّمَا كَثْرَةُ الْفُضُولِ فِيمَا لَيْسَ بِالْمَرْءِ إلَيْهِ حَاجَةٌ مِنْ أَمْرِ دِينِ غَيْرِهِ وَدُنْيَاهُ لَا سِيَّمَا إنْ كَانَ التَّكَلُّمُ لِحَسَدِ أَوْ رِئَاسَةٍ . وَكَذَلِكَ الْعَمَلُ فَصَاحِبُهُ إمَّا مُعْتَدٍ ظَالِمٌ وَإِمَّا سَفِيهٌ عَابِثٌ وَمَا أَكْثَرُ مَا يُصَوِّرُ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ بِصُورَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَكُونُ مِنْ بَابِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ . فَتَأَمَّلْ الْآيَةَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لِلْمَرْءِ وَأَنْتَ إذَا تَأَمَّلْت مَا يَقَعُ مِنْ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عُلَمَائِهَا وَعُبَّادِهَا وَأُمَرَائِهَا وَرُؤَسَائِهَا وَجَدْت أَكْثَرَهُ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ الَّذِي هُوَ الْبَغْيُ بِتَأْوِيلِ أَوْ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– [مجموع الفتاوى ١٤/٤٧٠]:" **أَنَّ الْمُحَرَّمَاتِ قِسْمَانِ: أَحَدُهُمَا: مَا يَقْطَعُ بِأَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يُبِحْ مِنْهُ شَيْئًا لَا لِضَرُورَةِ وَلَا لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ:** كَالشِّرْكِ وَالْفَوَاحِشِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ . وَالظُّلْمِ الْمَحْضِ وَهِيَ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْله تَعَالَى { قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } . فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ مُحَرَّمَةٌ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَبِتَحْرِيمِهَا بَعَثَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ وَلَمْ يُبِحْ مِنْهَا شَيْئًا قَطُّ وَلَا فِي حَالٍ مِنْ الْأَحْوَالِ وَلِهَذَا أُنْزِلَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةُ الْمَكِّيَّةُ وَنَفْيُ التَّحْرِيمِ عَمَّا سِوَاهَا ؛ فَإِنَّمَا حَرَّمَهُ بَعْدَهَا كَالدَّمِ وَالْمَيْتَةِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ حَرَّمَهُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ وَلَيْسَ تَحْرِيمُهُ مُطْلَقًا ".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– [مجموع الفتاوى ١٤/٤٧٢]:" الْمَقَامُ الثَّانِي: **أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ مَا يُفْعَلُ فِي الْإِنْسَانِ وَيَأْمُرُ بِهِ وَيُبِيحُهُ وَبَيْنَ مَا يَسْكُتُ عَنْ نَهْيِ غَيْرِهِ عَنْهُ وَتَحْرِيمِهِ عَلَيْهِ** فَإِذَا كَانَ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ مَا لَوْ نَهَى عَنْهُ حَصَلَ مَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْهُ **لَمْ يَنْهَ عَنْهُ وَلَمْ يُبِحْهُ** أَيْضًا. وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ إنْكَارُ الْمُنْكَرِ بِمَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا حُرِّمَ الْخُرُوجُ عَلَى وُلَاةِ الْأَمْرِ بِالسَّيْفِ؛ لِأَجْلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّ مَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ وَاجِبٍ أَعْظَمَ مِمَّا يَحْصُلُ بِفِعْلِهِمْ الْمُنْكَرَ وَالذُّنُوبَ وَإِذَا كَانَ قَوْمٌ عَلَى بِدْعَةٍ أَوْ فُجُورٍ وَلَوْ نُهُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَعَ بِسَبَبِ ذَلِكَ شَرٌّ أَعْظَمُ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يُمْكِنْ مَنْعُهُمْ مِنْهُ وَلَمْ يَحْصُلْ بِالنَّهْيِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ لَمْ يُنْهَوْا عَنْهُ . بِخِلَافِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ مِنْ دَعْوَةِ الْخَلْقِ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ يَحْصُلُ بِهَا مَصْلَحَةٌ

رَاجِحَةٌ عَلَى مَفْسَدَتِهَا كَدَعْوَةِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَنُوحٍ لِقَوْمِهِ فَإِنَّهُ حَصَلَ لِمُوسَى مِنْ الْجِهَادِ وَطَاعَةِ اللَّهِ وَحَصَلَ لِقَوْمِهِ مِنْ الصَّبْرِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاَللَّهِ مَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ بِهِ حَمِيدَةً وَحَصَلَ أَيْضًا مِنْ تَغْرِيقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مَا كَانَتْ مَصْلَحَتُهُ عَظِيمَةً . وَكَذَلِكَ نُوحٌ حَصَلَ لَهُ مَا أَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ ذُرِّيَّتُهُ هُمْ الْبَاقِينَ وَأَهْلَك اللَّهُ قَوْمَهُ أَجْمَعِينَ فَكَانَ هَلَاكُهُمْ مَصْلَحَةً . فَالْمَنْهِيُّ عَنْهُ إذَا زَادَ شَرُّهُ بِالنَّهْيِ وَكَانَ النَّهْيُ مَصْلَحَةً رَاجِحَةً كَانَ حَسَنًا وَأَمَّا إذَا زَادَ شَرُّهُ وَعَظُمَ وَلَيْسَ فِي مُقَابَلَتِهِ خَيْرٌ يَفُوتُهُ لَمْ يُشْرَعْ إلَّا أَنْ يَكُونَ فِي مُقَابَلَتِهِ مَصْلَحَةٌ زَائِدَةٌ فَإِنْ أَدَّى ذَلِكَ إلَى شَرٍّ أَعْظَمَ مِنْهُ لَمْ يُشْرَعْ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْآمِرُ لَا صَبْرَ لَهُ فَيُؤْذَى فَيَجْزَعُ جَزَعًا شَدِيدًا يَصِيرُ بِهِ مُذْنِبًا وَيَنْتَقِصُ بِهِ إيمَانُهُ وَدِينُهُ . فَهَذَا لَمْ يَحْصُلْ بِهِ خَيْرٌ لَا لَهُ وَلَا لِأُولَئِكَ ؛ بِخِلَافِ مَا إذَا صَبَرَ وَاتَّقَى اللَّهَ وَجَاهَدَ وَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ بَلْ اسْتَعْمَلَ التَّقْوَى وَالصَّبْرَ ؛ فَإِنَّ هَذَا تَكُونُ

عَاقِبَتُهُ حَمِيدَةً . وَأُولَئِكَ قَدْ يَتُوبُونَ فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِبَرَكَتِهِ وَقَدْ يُهْلِكُهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَيَكُونُ ذَلِكَ مَصْلَحَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }".

وقال –رحمه الله– [مجموع الفتاوى ١٤/٤٧٤]:" **وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ لِظَنِّهِ أَنَّهُ يُعِينُهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَإِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إلَّا مَفْسَدَةً أَوْ مَفْسَدَتُهُ رَاجِحَةٌ عَلَى مَصْلَحَتِهِ** وَقَدْ تَنْقَلِبُ تِلْكَ الطَّاعَةُ مَفْسَدَةً ؛ فَإِنَّ الشَّارِعَ حَكِيمٌ فَلَوْ عَلِمَ أَنَّ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَمْ يُحَرِّمْهُ لَكِنْ قَدْ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ الْمُحَرَّمَ ثُمَّ يَتُوبُ وَتَكُونُ مَصْلَحَتُهُ أَنَّهُ يَتُوبُ مِنْهُ وَيَحْصُلُ لَهُ بِالتَّوْبَةِ خُشُوعٌ وَرِقَّةٌ وَإِنَابَةٌ إلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِنَّ الذُّنُوبَ قَدْ يَكُونُ فِيهَا مَصْلَحَةٌ مَعَ التَّوْبَةِ مِنْهَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ

بِعَدَمِ الذُّنُوبِ كِبْرٌ وَعُجْبٌ وَقَسْوَةٌ فَإِذَا وَقَعَ فِي ذَنْبٍ أَذَلَّهُ ذَلِكَ وَكَسَرَ قَلْبَهُ وَلَيَّنَ قَلْبَهُ بِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ التَّوْبَةِ ".

٥ – دعوة الأقرب فالأقرب

المسألة الخامسة دعوة الأقرب فالأقرب، فمن المنهج القويم منهج النبي الأمين –صلى الله عليه وسلم- أن يبدأ العبد بدعوة أهله وأقاربه نصحا وإرشادا وتوجيها لأنه خير الناس لهم قال النبي –صلى الله عليه وسلم-:"خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي ".

وقد جاء في المثل: من لا خير له في أهله لا خير له في الناس.

فالأقربون أحق بالنصح وأولى بالمعروف من غيرهم

وقال تعالى آمرا نبيه –صلى الله عليه وسلم-{ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} واختصاص الأقربين دلالة على أنهم

أولى وأحق من غيرهم وهذا لا ينافي النذارة العامة فليبدأ بالأولى ثم الأولى.

المسألة الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ (٦)

الصبر على الأذى في العلم

٦) لابد مع العلم والعمل والدعوة أن يتحلى العبد بالصبر وهذه هي المسألة الرابعة التي يجب علينا أن نتعلمها ونتفهمها، فإن العبد إذا سلك طريق العلم والسنة لا بد أن يصيبه كما أصاب الأولون من الأذى والبلاء وهذا يحتاج إلى الاستعانة بالصبر وقد أمر الله نبيه –صلى الله عليه وسلم– بأن يصبر كما صبر من قبله من أولي العزم من الرسل لأنهم أعظم الأنبياء صبرا فقال تعالى{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}[الأحقاف ٣٥]

وأمرنا جميعا بالصبر فقال –سبحانه-{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }[البقرة ١٥٣]

وقال –سبحانه-{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[آل عمران ٢٠٠]

وقد أعد الله للصابرين أعظم الدرجات وأعظم الحسنات فقال سبحانه{ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[الزمر ١٠]

فالعبد خلق لعبادة ربه، ومن أجل ذلك جعل الاختبار والابتلاء؛ ليمحصه ويميز الخبيث من الطيب، والصبر هو التحمل بدون جزع وتسخط وتضجر، فعلى العبد أن يصبر ويتحمل ابتغاء مرضات الله لا يجعل فتنة الناس كعذاب الله فيكون من الخاسرين قال تعالى{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ

جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِين }[العنكبوت:١٠]

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم: { وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }

قَالَ الشَّافِعِيُّ . رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ . رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ }[محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ (٧)

---

٧) والدليل على ما سبق من هذه المسائل الأربع هذه السورة العظيمة سورة العصر التي قال عنها الإمام الشافعي

—رحمه الله–:"لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ ".

فقد أقسم الله —سبحانه– أن الإنسان في خسران بين إلا من أتى بهذه الأربع العلم والعمل والدعوة والصبر فالإيمان بالله يستوجب العلم به، وعمل الصالحات يستوجب العلم بالصالحات، والتواصي بالحق والدعوة إليه يستلزم العلم بالحق

فالإنسان في خسران وهلاك إلا من امتثل هذه الأربع، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله وقليل ما هم، فالمستثنى لا بد أن يكون أقل من المستثنى منه.

وسورة العصر حجة كافية على الناس لإلزامهم بالتمسك بدين الله تعلما وعملا وتبليغا

والبخاري –رحمه الله– قد بوب بابا في كتابه فقال:" بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ }[محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ "

وهذا يدل على وجوب البدء بالعلم قبل القول والعمل وخاصة العلم بكلمة التوحيد التي لا يصح دين العبد إلا بها، ومن أجلها قامت الدنيا وبعث الأنبياء والمرسلون

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنا، وَرَزَقَنا، وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً } [المزمل: ١٥، ١٦]. (٨)

ثلاث مسائل مهمة يجب على العبد تعلمها

٨) بعد أن ذكر المؤلف المسائل الأربع التي يجب على المسلم أن يتعلمها ويتحلى بها في حياته العملية ذكر ثلاث مسائل يجب على المسلم ذكرا أو أنثى أن يتعلمها ويتفهمها فهي تتعلق بالأربع السابقة بالعلم والعمل والدعوة والصبر

فالمسألة الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملا بل أرسل إلينا رسولا فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار

فإذا كنت تقر بأن الله خلقك ورزقك وأنه المتفرد في ربوبيته فاعلم أنه لم يخلقنا هملا ولا سدى ولا عبثا؛ بل خلقنا لمهمة عظيمة من أجلها أرسل إلينا رسولا ليطاع ولا يعصى، ثم أعد الجنة للطائعين والنار للعاصين، وهذا يستلزم العلم بما هو طاعة وبما هو معصية حتى يفوز العبد بالجنة وينجو من النار، والعلم بلا شك يستلزم العمل والدعوة والصبر

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِه المِسْأَلَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً } [المزمل: ١٥، ١٦].

وقوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى } [القيامة : ٣٦]

وقوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : ١١٥]

وقال تعالى { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النور ٥٦]

وروى البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَنْ يَأْبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)[الجن: ١٨]. (٩)

---

٩) المسألة الثانية: أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ

أي: يجب أن تعلم أنك إذا أقررت لله بالربوبية فإن الرب لا يرضي أن يشرك معه أحد في عبادته؛ لأنه هو المستحق للعبادة وحده، فمن صرف شيئا من العبادة لغيره ولو كان ملكا أو نبيا فقد أشرك بالله وجعل لله ندا، فما كان لله فلا يصرف إلا لله وحده، فكما أن الله لا يشركه أحد في الخلق والرزق والملك فلا شك أنه لا شريك له في عبادته، فكما

أنك لا تطلب الرزق من أحد فلا تطلب الشفاء ولا الولد ولا كشف الضر إلا من الله وحده

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً }[الجن ١٨].

وقوله تعالى{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا }[الأسراء ٥٦]

فالعلم الذي هو معرفة الله يستلزم عليك معرفة هذه المسألة معرفة ما لا يصرف إلا لله وحده، والعلم يستلزم العمل والدعوة والصبر

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[المجادلة: ٢٢] (١٠)

---

١٠) العلم الذي هو معرفة الله ومعرفة رسوله –صلى الله عليه وسلم- كما سبق يستلزم طاعة الرسول وتوحيد الله سبحانه وهما المسألتان السابق ذكرهما، فمن تعلم هذين المسألتين فلا بد أن يتعلم أنه يجب عليه موالاة الطائعين

الموحدين ومعاداة من حاد الله ورسوله ولو كان من أقرب الناس صلة، كما في الدليل الذي ذكره المؤلف والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[التوبة ٢٣]

وقال تعالى{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}[المائدة ٥١]

والموالاة هي المحبة والمودة، فمن كان يحب الله ورسوله فلا يجوز له محبة أعداء الله وأعداء رسوله –صلى الله عليه وسلم–

والموالاة كل بحسبها منها ما هو كفر مخرج عن الملة، ومنها ما هو ذنب عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب

فإذا كانت الموالاة على الكفر ونصرة الكفر على الإسلام، فهي كفر بالله العظيم، وإن كانت من أجل الدنيا والحصول

عليها من غير فعل ما هو كفر، فهذه معصية، فإن فعل ما هو كفر للحصول على الدنيا فهو كافر

والدليل ما جاء عند البخاري وغيره من حديث علي–رضي الله عنه– قال: بَعَثَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالزُّبَيْرَ فَقَالَ ائْتُوا رَوْضَةَ كَذَا وَتَجِدُونَ بِهَا امْرَأَةً أَعْطَاهَا حَاطِبٌ كِتَابًا فَأَتَيْنَا الرَّوْضَةَ فَقُلْنَا الْكِتَابَ قَالَتْ لَمْ يُعْطِنِي فَقُلْنَا لَتُخْرِجِنَّ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ فَأَخْرَجَتْ مِنْ حُجْزَتِهَا فَأَرْسَلَ إِلَى حَاطِبٍ **فَقَالَ لَا تَعْجَلْ وَاللَّهِ مَا كَفَرْتُ وَلَا ازْدَدْتُ لِلْإِسْلَامِ إِلَّا حُبًّا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا وَلَهُ بِمَكَّةَ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِي أَحَدٌ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا فَصَدَّقَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ عُمَرُ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَإِنَّهُ قَدْ نَافَقَ فَقَالَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَهَذَا الَّذِي جَرَّأَهُ.

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ.

وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ }[الذاريات: ٥٦]. وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ، وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهى عَنْه الشِّركُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}[النساء: ٣٥]. (١١)

ملة إبراهيم وأعظم ما أمر الله به ونهى عنه

(١١) اعلم بصرك الله بطريق الحق قولا وعملا واعتقادا أن الحنيفية ملة إبراهيم الملة القويمة المائلة عن الشرك والمائلة من الضلال إلى الهدى والرشاد أن تعبد الله وحده مخلصا له

الدين، وبذلك أمر الله الإنس والجن وخلقهم لها والدليل قوله تعالى{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ }[الذاريات: ٥٦].

ومعنى يعبدون: يوحدون وهو التوحيد الذي بعث الأنبياء من أجله هو إفراد الله بالعبادة وهو أعظم ما أمر الله به، وضده الشرك وهو صرف أي نوع من العبادة لغير الله وهو أعظم ما نهى الله عنه.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (١٢)

---

١٢) شرع المؤلف في بيان الأصول الثلاثة التي سيسأل عنها العبد في قبره من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

وشرع فيها بصيغة سؤال لشد انتباه المتعلم، وهذه الأصول يجب على العبد معرفتها لأنها أصول الدين، والأصول جمع أصل وهو: ما يبني عليه غيره، وهي التي يسأل عنها العبد في قبره

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ الْحَمْدُ للَهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[الفاتحة: ٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ. (١٣)

الأصل الأول الذي يسأل عنه العبد في قبره

١٣) فإذا قيل لك من الذي خلقك ورزقك وبيده نفعك وضرك ؟

فقل: ربي الله الذي خلقني ورزقني وبيده النفع والضر وهو الذي رباني وربى جميع الخلق بنعمه ونعمه لا تعد ولا

تحصى، وهو الذي خلقنا في أحسن تقويم، وصورنا فأحسن صورنا، وهو معبودي ليس لي إله ولا معبود سواه ولا يستحق العبادة غيره؛ لأن الربوبية تستلزم العبودية فمن اتخذ معبودا غير الله فقد اتخذ ربا سواه

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ الْحَمْدُ للَهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[الفاتحة: ٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ

فالعالم وأنا واحد منه كله مربوب ومخلوق لله فالحمد والشكر له وحده والعبودية له وحده

فالله واهب المواهب وهو المربي لجميع العالمين وتربيته لهم تستوجب حقوقا عليهم أعظمها صرف العبادة له وحده لا شريك له.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }[فصلت: ٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }[الأعراف: ٥٤] (١٤)

---

١٤) فإذا قيل لك بما عرفت ربك؟

فقل: بآياته ومخلوقاته هذه الآيات وهذه المخلوقات التي حولنا عن أيماننا وشمائلنا وفوقنا وتحتنا وأمامنا وخلفنا لا شك أنها تدل على الخالق الذي دبر ووهب وربى وأنعم

فآيات الله كثيرة منها كما ذكر المؤلف الشمس والقمر والليل والنهار ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهما، فهذا أعظم دليل على أن الله ربي لا رب لي سواه وربوبيته تستلزم ألوهيته فهو معبودي ليس لي معبود سواه

وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }[البقرة: ٢١، ٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ. رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ. (١٥)

---

١٥) والرب هو المعبود أي: الرب هو المستحق للعبادة، فالربوبية تستلزم العبودية؛ ولذلك أمرنا الله كما في الآية التي ذكرها المؤلف بعبادة الله الذي خلقنا وأن لا نشرك به شيئا ولا نتخذ له أندادا، والند هو النظير والشبيه والمثيل

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ : سَأَلْتُ ، أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ قَالَ : **أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**.

فالذي خلقك هو المستحق أن تعبده وأن لا تجعل له ندا

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ (١٦)

تعريف العبادة وذكر بعض أنواعها

١٦) أي: إذا عرفت أن الله هو المستحق للعبادة فلا بد أن تعرف أنواع العبادة التي أمر الله بها، وهي التي تجمعها مراتب الدين الثلاثة الإسلام والإيمان والإحسان

والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة

ولا تعرف أنواع العبادة إلا من خلال أدلة الكتاب والسنة؛ لأن ما يحبه الله ويرضاه لابد أن يعرف عن طريق الخبر إما عن الكتاب وإما عن السنة، فمن جاء بعبادة لم يخبر عنها

الله ولا رسوله فقد ابتدع وضل، فالعبادة توقيفة على الدليل.

وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى(١٧)

---

١٧) أي: من الدين الذي يجمع هذه المراتب الثلاثة الإسلام والإيمان والإحسان: الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وهذه أعظم أنواع العبادة ذكرها على سبيل المثال، لأنها أعظم الأنواع وأكثر الناس يقعون فيما يناقضها، وأنواع العبادة التي أمر الله بها غير ذلك كثيرة كلها لا تصرف إلا له وحده

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً }[الجن: ١٨]. فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ الهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }[المؤمنون: ١١٧].

وَفِي الْحَدِيثِ: (الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ). وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }[غافر: ٦٠].(١٨)

الدعاء هو العبادة

١٨) هذه أدلة عامة على أن العبادة لا تصرف لغير الله، وأن من صرف منها شيئا لغير الله فقد أشرك وكفر.

وهي أدلة خاصة على أن الدعاء من أنواع العبادة

فالدعاء إذا أطلق كان بمعنى العبادة كما صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم– أنه قال:" الدعاء هو العبادة " أما اللفظ الذي ذكره المؤلف فلا يصح

ويدل على أن الدعاء هو العبادة قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }

ويدل أيضا قوله تعالى مخبراً عن إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا }[مريم:٤٨، ٤٩]، فتأمل وضع كلمة يعبدون مقابل كلمة تدعون فكان الدعاء بمعنى العبادة، والأدلة على ذلك كثيرة.

مفهوم الدعاء وأنواعه

والدعاء معناه الطلب المتضمن لغاية الحب مع غاية الذل

وهو نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة

ودعاء المسألة: هو الطلب بكشف الضر وجلب النفع، وهو متعلق بالربوبية

ودعاء العبادة: هو فعل المشروع طلبا للثواب وخوفا من العقاب، وهو متعلق بالألوهية

فمن صرف شيئا من النوعين لغير الله فهو مشرك كافر

من دعا غير الله عز وجل بشيء لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر سواء كان المدعو حياً أو ميتاً، لو قيل لحي قادر حاضر: أطعمني اسقني جاز ذلك بخلاف الغائب والميت فمن قال ذلك لغائب أو ميت فقد أشرك؛ لأن هذا القول للحي القادر الحاضر ليس فيه اعتقاد ملك النفع

والضر لغير الله؛ لأن هذا الحي القادر الحاضر فيه حركة ظاهرة وقدرة واضحة بينة أودعها الله فيه، أما الميت والغائب فقد نفى الله عنهم القدرة قال تعالى{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}[الرعد ١٤]

وقال تعالى{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا }[الإسراء ٥٦]

وقال تعالى{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}[فاطر ١٣،١٤]

وقال تعالى{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }[الزمر ٤٣،٤٤]

فالشفاعة لا تتطلب إلا من الحي الحاضر القادر كما طلبت في حياة النبي –صلى الله عليه وسلم- وكما تطلب من الأنبياء يوم القيامة في حضرتهم

وقد جاء التفريق صريحا بين كون عيسى –صلى الله عليه وسلم- حاضرا وغائبا قال تعالى{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }[المائدة ١١٧]

وقد فرق الله سبحانه بين الأحياء والأموات فقال تعالى{ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ *

أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ }[النحل ٢٠،٢١]

وهذا واضح بين فإن قيل: إنما ندعوا من هم أحياء عند ربهم يرزقون لقوله تعالى{ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }

قلنا: نعم هم أحياء عند ربهم في دار كرامته أما عن الدنيا فقد ماتوا وانقطعوا فقد قال الله عن نبيه –صلى الله عليه وسلم–{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ }

وقد فرق الصحابة –رضي الله عنهم– بين كون النبي – صلى الله عليه وسلم– حيا وميتا حين توسلوا بالعباس – رضي الله عنه– وتركوا التوسل بالنبي –صلى الله عليه وسلم– فما يطلب من الحي لا يجوز طلبه من الميت والغائب.

قال تعالى{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[الرعد ١٦]

في هذه الآية بيان واضح أن من دعا غائبا أو ميتا متخذه وليا وشفيعا فكأنما ساوى بين الأعمى والبصير وبين الظلمات والنور، ومثله كمثل من اتخذ خالقا مع الله؛ لأن من أفرد الله بالخلق فيلزمه أن يفرده في العبادة وفيما هو له.

وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[آل عمران: ١٧٥]. (١٩)

الخوف دليله وأنواعه

١٩) الخوف نوع من العبادة ويقصد به خوف السر، وليس الخوف الطبيعي الذي يعتري كل الناس كالخوف من السبع، والخوف من القتل أو المرض أو غير ذلك مما يتوقع فيه الهلاك أو الضرر

قال تعالى عن موسى –صلى الله عليه وسلم–{ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ } [القصص ١٨]؛ لكن إذا كان هذا الخوف سبباً لترك واجب أو فعل محرم كان حراماً، كما هو ظاهر في عصرنا الخوف من العدوى زعموا فيغلقون

المساجد أو يصلون متباعدين فيتركون هذه الواجبات من أجل هذا الخوف نسأل الله السلامة والعافية.

وخوف السر لا يصرف إلا لله فمن اعتقد في أحد أنه قادر على أن يصيبه بمكروه وإن لم يباشره فقد أشرك

قال تعالى{ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ }[هود ٥٤،٥٥]، وقال تعالى{ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ }[الزمر ٣٦]

والخوف من الله ليس بالمغالاة فيه فلا ينافي الرجاء؛ بل يكون وسطا لا يصل بصاحبه إلى درجة اليأس أو القنوط.

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }[الكهف: ١١٠].(٢٠)

الرجاء ومعناه

٢٠) والرجاء من أنواع العبادة، وهو عبادة قلبية، وهو الطمع والرغبة بالحصول على الشيء المراد مثل الطمع في رحمة الله ومغفرته وفي ثوابه وفي جنته وفي شفاء المريض كل هذا لا يصرف إلا لله وحده

ويكون الرجاء وسطا لا غلو فيه فلا ينافي الخوف من الله فيترك العمل.

فالعبد يعبد الله بالخوف والرجاء من غير إفراط ولا تفريط حتى تكون العبادة على أكمل وجه، فإذا مالت نفسه إلى

اقتراف الذنوب يغلب الخوف وإذا مالت نفسه إلى اليأس والقنوط يغلب الرجاء ليجعل بين الخوف والرجاء توازنا

الخوارج غلبوا الخوف فوقعوا في اليأس حتى حكموا على صاحب الكبيرة بالخلود في النار

والمرجئة غلبوا الرجاء فوقعوا في الإهمال حتى حكموا على أفسق المسلمين بأن إيمانه كإيمان الصديقين

ودَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }[المائدة: ٢٣]. وقوله{ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }[الطلاق: ٣].(٢١)

التوكل مفهومه وحقيقته

٢١) التوكل على الله هو توجه القلب إلى الله حال العمل، واستمداد المعونة منه، والاعتماد عليه وحده .

وهو الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الصبر واليقين والثقة بالله وفعل الأسباب النافعة التي لا تخالف الشرع.

فإذا أراد العبد القيام بأي عمل ديني أو دنيوي، فلا بد أن يتوجه بقلبه إلى الله وحده طالبا العون منه صابرا محتسبا مفوضا ومسلما إليه وحده، هذا هو مفهوم التوكل وحقيقته

والتوكل أركانه ثلاثة

١ – السبب

٢ — الصبر

٣ — الإخلاص واليقين

قال تَعَالَى{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }

عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الطَّاعُونِ فَقَالَ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مَا مِنْ عَبْدٍ يَكُونُ فِي بَلَدٍ يَكُونُ فِيهِ وَيَمْكُثُ فِيهِ لَا يَخْرُجُ مِنْ الْبَلَدِ **صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ** إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ ". أخرجه البخاري

فالسبب لا بد منه في التوكل مع الصبر والإخلاص واليقين، فلا يغلو العبد في السبب فيترك التوكل ولا يغلو في التوكل فيترك السبب، كمثل هؤلاء الذين غلو في هذه الأسباب الاحترازية من الوباء زعموا فتركوا من أجلها الواجبات، فإن لم يكن هذا هو الغلو في السبب فما هو الغلو؟ مع العلم أن هذه الأسباب عندهم ظنية فتركوا اليقين من أجل الظن، فاليقين هو فعل هذه الواجبات فهي أسباب الرحمة والمغفرة ووصال الله سبحانه وتعالى وعفوه

وهذه العدوى المزعومة يفرقون بها بين كل الناس صحيحهم وسقيمهم ظنا منهم أن الصحيح ربما يكون مصابا فبنوا احترازاتهم على أمور خفية وأوجبوا بها ترك الواجبات، والحقيقة أنه لا يجوز تعطيل المستحبات بها فضلا عن الواجبات.

والعجيب أنهم يوجبون ذلك ويلزمون به في العبادات فحسب أما أماكن المعيشة ومصالحهم الدنيوية لا يهتمون وإلى الله المشتكى.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي [لطائف المعارف ١/٧٥]:" وأما ما خفي منها فلا يشرع اتقاؤه واجتنابه فإن ذلك من الطيرة المنهي عنها والطيرة من أعمال أهل الشرك والكفر".

فاعلم أن ما لله لا يتوصل إليه إلا بما شرع الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم–، وأن ما للعبد لا يتوصل إليه إلا بما يرضي الله ولا يتعارض مع شريعة الله.

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ }[الأنبياء: ٩٠].(٢٢)

الرغبة والرهبة والخشوع عبادات مخصوصة

٢٢) الرغبة هي رجاء مخصوص خاص بالعبادة أما الرجاء فهو عام، وكذلك الرهبة هي خوف خاص متعلق بالعبادة فقط

والخشوع هو الطمأنينة الناتجة عن الرغبة والرهبة فيكون حال عبادته لربه راغبا راهبا خاشعا بمزيد رجاء ومزيد خوف وخضوع، والدليل قوله تعالى{ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ }

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...} [البقرة: ١٥٠].(٢٣)

الخشية خوف مقرون بالعلم

٢٣) الخشية هي خوف خاص مبني على العلم بحال من تخشاه قال تعالى{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}[فاطر ٢٨] لأنهم يعلمون حقيقة عظمة الله وقدرته، وهذا خلاف الخوف فلا يشترط فيه العلم بحقيقة من يخافه.

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...}[الزمر: ٥٤].(٢٤)

مفهوم الإنابة

٢٤) الإنابة وهي الرجوع والتوبة المقرونة بالازدياد من العمل الصالح، فالتائب الذي لم يزداد من العمل ليس منيبا

وقد أمرنا الله باتباع سبيل المنيبين إليه فقال سبحانه{ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[لقمان ١٥]

فالإنابة رجوع تام عن كل الذنوب وهو سبيل الصادقين الذين أمرنا الله أن نكون معهم، فعلينا بالمبادرة بالإنابة إلى الله والثبات عليها قولا وعملا واعتقادا ففي ذلك الفوز والفلاح والنجاة.

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }[الفاتحة: ٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: (...وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ).(٢٥)

الاستعانة ومفهومها

٢٥) الاستعانة هي طلب العون وفي الحديث" إذا استعنت فاستعن بالله " وهو دليل على أن الاستعانة لا تكون إلا بالله فطلب العون من الناس شرك بالله تعالى قال تعالى{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }فمن طلب من العبد العون فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كمن يستعين برجل غائب على قضاء حاجته أو رفع متاعه، كمن أراد القيام فيقول يا سيدي فلان، أو يا بركة فلان، فهذا من الشرك الذي حرمه الله تعالى.

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } [الفلق: ١]. و{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ }[الناس: ١]. (٢٦)

الاستعاذة باللّه وبصفاته

٢٦) الاستعاذة وهي طلب العوذ أي: طلب الحمى من المكروه وهي تجوز بالله وبصفاته تعالى كالعزة والعظمة والكلام كما جاء في الحديث " أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق "، فلله سبحانه صفة العزة والعظمة والكلام، وصفاته علية ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فصفاته نمررها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل، فنثبت لله ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله – صلى الله عليه وسلم–

فالاستعاذة بالأموات أو الأحياء غير الحاضرين القادرين شرك بالله تعالى؛ لأن كل ما هو عبادة لا يصرف إلا لله –عز وجل–

هل أحد ينكر أن الاستعاذة عبادة؟ لا أظن أحدا ينكر ذلك إذاً نقول: هل يجوز عبادة غير الله؟ فلا شك سيجيب ويقول: لا يجوز، وإلا يجيب كما أجاب المشركون الأول{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }

فإن قال: الاستعاذة منها ما هو عبادة ومنها ما ليس بعبادة قلنا: هذا صحيح لكن بين لنا متى تكون عبادة ومتى لا تكون عبادة وفي النهاية سيثبت ما ذكرناه وإلا وقع في التناقض.

وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ }[الأنفال ٩].(٢٧)

الاستغاثة ومفهومها

٢٧) الاستغاثة وهي طلب الغوث والمدد والنصرة والإنقاذ من الشدة والهلاك فمن صرفها لغير الحي الحاضر القادر فهو مشرك كافر؛ لأن من صرفها للغائب أو الميت أو غير القادر فقد اعتقد أن له تصرفاً خفياً في الكون فجعل له حظاً من الربوبية التي هي لله وحده قال تعالى{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل ٦٢].

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ }[الأنعام: ١٦١.١٦٣]. وَمِنَ السُنَّةِ: (لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ).(٢٨)

الذبح لا يصرف إلا لله

٢٨) كذلك الذبح من أنواع العبادة التي لا تصرف إلا لله فمن صرف منها شيئا لغير الله فهو مشرك كافر، فكما أنك تصلي لربك فانحر واذبح لربك، فتكون حال الذبح متجها بقلبك إلى الله فإذا اتجه قلبك لغير الله فقد أشركت مع الله في عبادته.

وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً } [الإنسان: ٧].(٢٩)

معنى النذر

٢٩) والنذر لا يكون إلا لله وهو إيجاب المرء على نفسه شيئا لم يجب عليه، فمن أوجب على نفسه شيئا لغير الله بمعنى اتخاذ ذلك قربة وتعظيما له فقد أشرك، فمن نذر لولي حيا أو ميتا فقد أشرك؛ لأنه قد اتخذه شريكا في العبادة، والعبادة حق لله وحده.

الأَصْلُ الثَّانِي

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ

وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.(٣٠)

معرفة دين الإسلام

٣٠) الأصل الثاني من الأصول التي سيسأل عنها العبد في قبره هو معرفة دين الإسلام عرفه المؤلف فقال: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

وقول المؤلف(بالأدلة) أي: نصوص الكتاب والسنة

فدين الإسلام هو الاستسلام والإذعان والتسليم والإقرار والإخلاص لله بالتوحيد وهو إفراد الله بما هو له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

والانقياد بالطاعة فلا تكن ممتنعا عن الطاعة متولٍ عنها، والامتناع والتولي ليس مجرد الترك ولكن بمعنى الترك الكلي الذي يستلزم عدم الإيمان.

وأن تتبرأ من الشرك وأهله فلا تكفي البراءة من الشرك فحسب بل لا بد من البراءة من أهله لأنهم هم الذين اقترفوه فكان حقا عليهم أن يتبرأ منهم وأن يهجروا ويحذر منهم.

هذا هو تعريف دين الإسلام الذي يتضمن ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكل مرتبة لها أركان كما سيأتي.

المرتبة الأولى: الإسلام

فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.(٣١)

الإسلام وأركانه

٣١) المرتبة الأولى من مراتب الدين هي الإسلام

والإسلام أركانه خمسة: الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام دل عليها حديث جبريل الذي سيأتي ذكره وعلى ذلك أدلة كثيرة منها حديث بني الإسلام على خمس الحديث المشهور

والأركان هي الدعائم والأعمدة التي يبنى عليها الشيء

والإسلام إذا أفرد شمل الدين كله وإذا اجتمع مع الإيمان كان بمعنى الأقوال والأعمال الظاهرة

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ اله إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[آل عمران، ١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ ؟لا اله؟ نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ؟إلا اللهُ؟ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.(٣٢)

معنى كلمة التوحيد

٣٢) وشهادة أن لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد عليها أدلة كثيرة من الكتاب والسنة منها هذه الآية التي ذكرها المؤلف وفيها شهادة الله لنفسه بأنه لا إله إلا هو، وشهادة الملائكة وشهادة أهل العلم بذلك وأنه تعالى قائم بالقسط

والعدل، وهذا يدل على فضل العلم ومكانة أهله فتعلم العلم من أعظم المنافع في الدنيا والآخرة.

ومعنى لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله وهي إفراد الله بالعبادة

وتتكون من جزأين (لا إله) نافياً جميع ما يعبد من دون الله (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه.

فركناها نفي وإثبات ولذلك سميت بكلمة الإخلاص وكلمة التوحيد لأن التوحيد مصدر وحد توحيدا أي: جعل الشيء واحدا وهذا لا يتحقق إلا بالنفي والإثبات فالنفي وحده تعطيل والإثبات وحده لا يمنع من المشاركة.

وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[الزخرف: ٢٦ .٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }[آل عمران: ٦٤].(٣٣)

الدليل على معنى كلمة التوحيد

٣٣) وكلمة التوحيد لا تفسر إلا بما ذكرنا وهو لا معبود بحق إلا الله دل على ذلك هذه الآيات التي ذكرها المصنف فإذا تأملت في الدليل الأول تجد أن إبراهيم –صلى الله عليه وسلم– قد قرر الركنين النفي والإثبات أما النفي ففي

قوله (إنني براء مما تعبدون)، وأما الإثبات ففي قوله (إلا الذي فطرني)

وفي الدليل الثاني أثبت الركنين في قوله (أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً)

فكلمة التوحيد معناها لا معبود بحق إلا الله أو لا معبود حق إلا الله، فمن فسرها بغير ذلك فقد ضل عن الصراط وخالف النصوص الظاهرة الواضحة، ويدل على هذا المعنى ويوضحه توضيحا صريحا مضمون آيتين وهما قوله تعالى{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[الأنبياء ٢٥]، وقوله تعالى{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ }[النحل ٣٦]

فقوله (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) معناه قوله (اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

وَدِليلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ لَقَدْ جَآءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }[التوبة: ١٢٨].

وَمَعْنَى شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ.(٣٤)

الدليل على شهادة أن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعناها

٣٤) شهادة أن محمدا رسول الله هي الجزء الثاني من الشهادتين الذي لا يصح دين العبد إلا به، ويدل عليها كثير من نصوص الكتاب منها هذه الآية التي ذكرها المصنف وهي واضحة الدلالة

ومعناها هو طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع

قال تعالى{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}[التغابن ١٢]

وقال تعالى{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}[النساء ٨٠]

والأمر بطاعته أمر بتصديقه وأمر بامتثال شرعه وتجنب نواهيه

قال تعالى{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[النساء ٦٥]

فاتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- من واجبات الإيمان، فاتباعه اتباع لله وطاعته طاعة لله، وكذلك مخالفته مخالفة لله وعصيانه عصيانا لله.

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }[البينة: ٥].(٣٥)

الدليل على الصلاة والزكاة والتوحيد

٣٥) هذا دليل جمع الأمر بالتوحيد والصلاة والزكاة لأن التوحيد أصل الإسلام والصلاة والزكاة أعظم الأركان بعد التوحيد، وكثيرا ما يأتي في القرآن الصلاة مقرونة بالزكاة

قال تعالى{ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[التوبة ١١]

هذه الآية دليل على التوحيد والصلاة والزكاة، وأن أخوة الدين وإسلام المرء لا يصحان إلا بالتوحيد ومطلق العمل،

وقد ذكر الله الصلاة والزكاة على سبيل المثال لأنهما أعظم الأعمال فمن لم يأت بمطلق العمل فلا إيمان له

وقد جاءت الأدلة صريحة بالحكم على تارك مطلق الصلاة بالكفر أي التارك لها بالكلية فهناك فرق بين مطلق الترك والترك المطلق ومجرد الترك والترك المجرد، فمطلق الترك ومجرده أي أنه يأتي بالشيء أحيانا ويتركه أحيانا وهذا لا يسمى تاركا، أما الترك المطلق المجرد هو الذي لم يتحرك لفعل الشيء مطلقا

وقد وصف الله من أخر الصلاة عن وقتها أو لم يأت بها بالكلية بالمصلي فقال تعالى{ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}

فمجرد الترك لا يكفر وهذا هو الذي ذهب إليه العلامة الألباني والعلامة العثيمين وغيرهما.

ودَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }[البقرة: ١٨٣].(٣٦)

الدليل على الصيام

٣٦) والصيام هو أحد أركان الإسلام ودعائمه التي يبنى عليها فهو فريضة على المسلمين تحث على التآلف والاجتماع إذ المسلمون يجتمعون على فعله في شهر واحد، وهو عناية بصحة المسلم بإراحة معدته فالمعدة بيت الداء، وقل ما وجد داء إلا وكان سببه المعدة فحماية لها لابد من تجويعها وتعطيشها فما شرع الله للعباد شيئا إلا كان فيه منفعة لهم في دنياهم وأخراهم.

ودَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ }[آل عمران: ٩٧].(٣٧)

الدليل على الحج

٣٧) والحج من أركان الدين ودعائمه التي يبنى عليها وهي فريضة عظيمة تجمع المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد بأفعال واحدة تدعوا جميعها إلى الاجتماع والائتلاف على التوحيد وعلى طاعة الله وعلى المحبة والألفة فمن عرف حقيقة الدين عرف أن الاختلاف والفرقة منبوذان ومرفوضان فعلينا بالاجتماع والائتلاف والحث على ذلك ليلا ونهارا.

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ

وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا اله إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.(٣٨)

الإيمان مفهومه ومعناه

٣٨) الإيمان هو الإقرار والتصديق الجازم وليس هو مجرد التصديق

وهو قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص وعلى ذلك دلت الأدلة الواضحة الصريحة أشار المؤلف إلى الحديث الذي في الصحيحين من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ

وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ ».

وهذا الحديث دل على هذا المعنى الذي ذكرناه ففيه:

-أن الإيمان شعب تتفاوت في المنزلة وهذا دليل على زيادته ونقصانه

-أعلى هذه الشعب قول لا إله إلا الله وهذا دليل على أن الإيمان بالقول

-أدنى شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق وهذا دليل على أن الإيمان بالعمل ولا شك أن أعظم هذه الأعمال الصلاة ثم الزكاة

-الحياء من شعب الإيمان والحياء عمل قلبي يظهر مدلوله على الجوارح وهذا دليل على أن الإيمان بالاعتقاد

فالإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص بنص هذا الحديث

ويدل على ذلك قول الله تعالى{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }[الأنفال ٢،٣،٤]

فالإيمان كما ذكرنا قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص بنص الأدلة خلافا للمرجئة والخوارج والمعتزلة

هذا هو الإيمان باعتبار إفراده فإنه يشمل الدين كله كما دل على ذلك حديث وفد عبد القيس الذي في الصحيحين من حديث ابن عباس:" إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : مَنِ الْقَوْمُ ، أَوْ مَنِ الْوَفْدُ قَالُوا رَبِيعَةُ قَالَ مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ ، أَوْ بِالْوَفْدِ - غَيْرَ خَزَايَا ، وَلاَ نَدَامَى فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلاَّ فِي شَهْرِ الْحَرَامِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ فَمُرْنَا

بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ وَسَأَلُوهُ ، عَنِ الأَشْرِبَةِ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ، عَنِ الْحَنْتَمِ ، وَالدُّبَّاءِ ، وَالنَّقِيرِ ، وَالْمُزَفَّتِ ، وَرُبَّمَا قَالَ الْمُقَيَّرِ وَقَالَ احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ".

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: كما فى الحديث (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى{ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ }[البقرة: ١٧٧].(٣٩)

أركان الإيمان

٣٩) أركان هذا الإيمان باعتبار اجتماعه مع الإسلام سته بنص هذه الآية وبدلالة حديث جبريل –عليه السلام– الذي سيأتي ذكره وهذه الأركان هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر خيره وشره

فالإيمان بالله هو التصديق الجازم به وهذا يستلزم القول والعمل بهذا التصديق الذي يوجب الإيمان بما هو له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات

والإيمان بالملائكة هو التصديق الجازم بوجودهم وأنهم مخلوقات نورانية لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون وليسوا إناثا، ولا يعلم عددهم إلا الله منهم المكلف بالوحي ومنهم المكلف بالأرزاق ومنهم المكلف بالآجال وغير ذلك وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون

والإيمان بالكتب هو التصديق الجازم بأنها منزلة من عند الله، وأنها كلامه حقا غير مخلوق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وأن الإنس والجن مكلفون بالعمل بما فيها، وأنها رحمة وهداية لهم في الدنيا والأخرة، وأن أعظمها القرآن الذي هو كلام الله حقا وأنه غير مخلوق وأننا مأمورون بتعلمه والعمل بأحكامه

والإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بأنهم أفضل الناس أرسلهم الله لتبليغ دينه، وأن دينهم واحد وهو الإسلام لكن قد اختلفت بعض التشريعات والأحكام، وأنهم رحمة وحجة على الناس، وأن النبي المرسل إلينا هو محمد –صلى الله عليه وسلم– وهو أفضل الأنبياء وخاتمهم ولا نبي بعده

والإيمان باليوم الآخر هو التصديق الجازم بأنه حق، وأن الناس مبعوثون ومحاسبون فيه ومجزيون بأعمالهم، وأن الله قد أعد فيه من النعيم والعذاب جنة ونارا أعد الجنة للمتقين والنار للعاصين

ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }[القمر: ٤٩].(٤٠)

الإيمان بالقدر ومفهومه

٤٠) القدر مأخوذ من التقدير، يقال قدرت أقدر إذا علم ما سيفعل قبل فعله، وعلم ما سيحدث قبل حدوثه، ثم يجعل الشيء على وفق ما يقدر، والبشر قد يقدرون شيئاً ويكون ما يفعلون مخالفاً لما يقدرون لعجزهم وقصورهم، أما الله – عز وجل – فإنه قدر الأشياء وهي واقعة كما قدر سبحانه، لأنه علم ما العباد عاملون إلى يوم القيامة فكتب ذلك – سبحانه وتعالي – كتب أعمالهم من خير أو شر في اللوح المحفوظ وفق علمه، فالله علم أحوال العباد وأعمالهم وكتبها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف

سنة، فما يعمله العباد من خير أو شر فهو ليس خارجاً عن علم الله وكتابته في اللوح المحفوظ.

فالقدر ركن من أركان الإيمان الذي لا يصح إيمان العبد إلا به، ومراتبه أربع:

العلم، والكتابة، والمشيئة، وخلق الأشياء، وهي تأتي مرتبة هكذا ولذلك سميت مراتب علم ثم كتب ثم شاء ثم خلق

قال تعالى{ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام ٥٩]

وروى الإمام مسلم من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–

يَقُولُ « كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ – قَالَ – وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ »

فالله –عز وجل– علم ما سيكون في هذا الكون من خير وشر ثم كتبه على وفق ما علمه ثم شاءه فخلقه على وفق ما علم وكتب، فهو سبحانه قدر الخير والشر إرادة كونية التي هي بمعنى المشيئة، ولم يرد منهم شرعا إلا الخير فهو سبحانه لا يرضى لعباده الكفر ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر

ومشيئة الله مقدمة على مشيئة العباد لأن مشيئته سابقة على وفق علمه بأحوالهم، وهو الذي خلق لهم المشيئة فلا يشاءون إلا بإذنه قال تعالى{ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[التكوير]

ولا يعني هذا أن العبد مجبور على فعله فالله خلق للعباد قدرة وإرادة، تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، ولم يجبرهم على شيء منها بل مختارين لها.

ويزيد ذلك توضيحا أن العبد له قدرتان:

قدرة مثبتة (قدرة قبل الفعل) وتكون معها الإرادة يمكن بها حصول الفعل، وليست وحدها كافية وهي التي يجازي الله العبد بها على حسب إرادته وقدرته فتأتي القدرة الثانية

قدرة منفية (قدرة عند الفعل) وهي التي جاءت مجازة من الله للعبد بها إما توفيقا وإما خذلانا إما هدى وإما زيغا.

قال تعالى مخبرا عن شعيب –صلى الله عليه وسلم– { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود ٨٨]

هذه الآية بينت أن العبد له قدرتان كما ذكرنا

فقوله(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) فيه إثبات أن للعبد قدرة معها الإرادة

وقوله(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) فيه إثبات أن الله يمنح للعبد القدرة الثانية بإذنه

بهذا يتبين كون العبد مختارا وأن الله لم يجبره على فعل شيء

قال تعالى{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى }

فالقدر من عند الله، والسبب من عند العبد، فيكون العبد سببا في شقائه أو سعادته بحسب أعماله ومقاصده، والله تعالى يقدر على العبد بحسب ما يفعله العبد وما يقصده.

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ

أركانه: وله رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما فى الحديث: (أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }[النحل: ١٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }[الشعراء: ٢١٧ . ٢٢٠]. وقَوْلُهُ تَعَالَى{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ } [يونس: ٦١].(٤١)

الإحسان ومفهومه

٤١) المرتبة الثالثة من مراتب الدين الإحسان وهي أعلى المراتب وأرفعها منزلة، والإحسان هو: غاية الإخلاص ومنتهاه ظاهرا وباطنا

ونقصد بالإحسان هنا المقترن بالإيمان والإسلام ليس الإحسان العام فمنه ما هو واجب ومنه ما هو مستحب، فكل محسن مؤمن مسلم، فلا يتحقق الإحسان قبل الإيمان كما لا يتحقق الإيمان قبل الإسلام

والإحسان ركن واحد كما ذكر المؤلف

أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والمعنى: أن تراقب الله في عبادتك إياه كأنك تشاهده وتراه، فلا تفرط في شيء حتى تأتي بالعبادة على أكمل وجه، فإن لم تكن تراه وهذه حقيقة فلا يرى أحد ربه في الدنيا إنما يرى المؤمنون ربهم في الأخرة، والكافرون عن رؤيته لمحجوبون،

فإن لم تكن تراه فاعلم أن الله مطلع عليك لا يخفى عليه شيء من أمرك

،فالإحسان على درجتين: الأولى: استحضار كأنك ترى الله رب العالمين حين تتعبد إليه، والثانية: مطالعة الله لأعمالك ورؤيته لك، فعلى هذا نوطن أنفسنا ونجاهدها للعمل بالإحسان ظاهرا وباطنا حتى ننال رضى الرحمن ونحشر مع الأنبياء والشهداء ونكون من الفائزين.

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ: عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ: (أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا). قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ:(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ). قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ

تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ). قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: (مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ). قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ). قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: (يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟). قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم).(٤٢)

الدليل الجامع لمراتب الدين وأركانه

٤٢) هذا الحديث دليل على ما سبق من مراتب الدين وأركان كل مرتبة وهو حديث عظيم قد مر بنا بيان شيء من معناه وبيان ما فيه من معاني يطول ذكرها ليس هذا موضع بيانها.

ويدل على أن المسلمين ثلاث مراتب قوله تعالى{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–[مجموع الفتاوى ١٠/٧]:" فَتَبَيَّنَ أَنَّ دِينَنَا يَجْمَعُ الثَّلَاثَةَ لَكِنْ هُوَ دَرَجَاتٌ ثَلَاثٌ : " مُسْلِمٌ " ثُمَّ " مُؤْمِنٌ " ثُمَّ " مُحْسِنٌ " كَمَا قَالَ تَعَالَى{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ } وَالْمُقْتَصِدُ وَالسَّابِقُ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِلَا عُقُوبَةٍ بِخِلَافِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ . وَهَكَذَا مَنْ أَتَى بِالْإِسْلَامِ الظَّاهِرِ مَعَ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ ؛ لَكِنْ لَمْ يَقُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ ؛ فَإِنَّهُ مُعَرَّضٌ لِلْوَعِيدِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ . وَأَمَّا " الْإِحْسَانُ " فَهُوَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ وَأَخَصُّ مِنْ

جِهَةِ أَصْحَابِهِ مِنْ الْإِيمَانِ ." وَالْإِيمَانُ " أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَصْحَابِهِ مِنْ الْإِسْلَامِ . فَالْإِحْسَانُ يَدْخُلُ فِيهِ الْإِيمَانُ وَالْإِيمَانُ يَدْخُلُ فِيهِ الْإِسْلَامُ وَالْمُحْسِنُونَ أَخَصُّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنُونَ أَخَصُّ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ".

*الأَصْلُ الثَّالِثُ *

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الِعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُون فِي النبوة.(٤٣)

معرفة النبي -صلى الله عليه وسلم-

٤٣) اعلم ـوفقني الله وإياك- أن معرفة النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الأصل الثالث الذي يسأل عنه العبد في قبره، فيجب معرفته ومعرفة ما يقتضيه قولا وعملا واعتقادا

ليحظى العبد بتوفيق الله له في الثبات عليه وحسن الجواب عليه حين يأتيه الملكان

قال تعالى{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، فلا يتحقق إيمان العبد إلا بتحكيم النبي –صلى الله عليه وسلم– في شؤون حياته والتسليم بذلك فإذا حقق الإيمان نال الثبات في الدنيا والآخرة

قال تعالى { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}

عشر مسائل لمعرفة النبي -صلى الله عليه وسلم-

ومعرفة النبي –صلى الله عليه وسلم– تقتضي معرفة عشر مسائل:

١ – نسبه   ٢ – عمره ووطنه

٣– مدة حياته النبوية

٤ – الأمر الذي كان به نبيا ورسولا

٥ – الأمر الذي أرسل من أجله والمقصود منه

٦ – الأحداث التي حصلت له في حياته النبوية

٧ – كمال رسالته وتمامها

٨ – حقه على الناس

٩ – صحبته وآله وحقهم

١٠ - الأمر الذي بعث به ومن سبقه من الأنبياء

نسبه -صلى اللّه عليه وسلم- وعمره ووطنه ومدة حياته النبوية

النبي صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش وقريش من العرب والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما وسلم

ووطنه مكة وتوفي وله من العمر ثلاث وستون سنة

ففي صحيح مسلم منْ حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ ".

ووطنه مكة كما سيأتي في كلام المؤلف إن شاء الله تعالى

ومدة حياة النبي صلى الله عليه وسلم النبوية، أربعون سنة قبل البعثة، وثلاث وعشرون سنة نبيا ورسولا

ففي الصحيحين من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : بُعِثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لأَرْبَعِينَ سَنَةً

فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ.

نُبِّئَ بـ(اقْرَأ)، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالْدَعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعَالَى{ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ }[المدثر: ١-٧].

وَمَعْنَى: (قُمْ فَأَنذِرْ): يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) : أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ): أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ. (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ): الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ،(٤٤)

---

٤٤) **الأمر الذي كان به نبيا ورسولا والأمر الذي أرسل من أجله والمقصود منه**

بداية نزول الوحي على النبي -صلى الله عليه وسلم- دلالة على نبوته، وتكليفه برسالة الإسلام الخاصة دلالة على رسالته؛ فالنبي من أمر بتبليغ رسالة من سبقه، والرسول من أمر بتبليغ رسالة خاصة

فالنبي —صلى الله عليه وسلم- نبئ بـ (قرأ) أي كان نبيا ببداية نزول الوحي حين نزل عليه جبريل —عليه السلام- بالوحي فقال:" اقرأ باسم ربك الذي خلق " الآيات

وأرسل بالمدثر فأمر فيها بالتكليف بقوله تعالى{ يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر}

أرسل الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- لتبليغ رسالة الإسلام تحقيقا لمصالح الخلق جميعا في الدنيا والآخرة، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور،، فرسالة الإسلام هي رسالة عالمية شاملة كاملة صالحة لكل زمان ومكان

وليست خاضعة للعقول والأفكار، فهي رسالة من رب العالمين العالم بما كان وبما سيكون وبما لم يكن

قال تعالى{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، وقال تعالى{ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}

ورسالة الإسلام مبناها على أصلين: عبادة الله وحده لا شريك له، وأن لا يعبد الله إلا بما شرعه في كتابه، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم

فقد بعث الله نبيه –صلى الله عليه وسلم– بالنذارة عن الشرك والبراءة منه وأهله كما ذكر المؤلف من دلالة سورة المدثر

قال تعالى{ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا }[البقرة ٣٦]

وقال تعالى{ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ }[المائدة ٧٢]

وقال تعالى { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}[النساء ٨٠]

وفي الصحيح من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى

فهذه أدلة واضحة على أن دين الإسلام مبناه على هذين الأصلين: عبادة الله وحده لا شريك له، وأن لا يعبد الله إلا بما شرعه -سبحانه وشرعه رسوله -صلى الله عليه وسلم-

أخذ النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعوا إلى التوحيد عشر سنين مما يدل على عظم التوحيد وأنه أصل الدين ولا يستهان بالدعوة إليه، والنبي –صلى الله عليه وسلم– لم يترك الدعوة إلى التوحيد بعد العشر بل ظل يدعوا إليه إلى أن قبض –صلى الله عليه وسلم– أخذ يدعوا إليه وإلى غيره من شرائع هذا الدين الحنيف

وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً)[النساء: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا عِبَادِيَ

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)[العنكبوت: ٥٦].

قَالَ الْبُغَوِيُّ . رَحِمَهُ اللهُ :نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . : (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَ).

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهِيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ،(٤٥)

---

٤٥) **الأحداث التي حصلت للنبي –صلى الله عليه وسلم- في حياته النبوية**

قد حصل للنبي صلى الله عليه وسلم من المنح والمحن والابتلاءات العظيمة تمحيصا ومداواة للمؤمنين، ولذلك كان أصحاب النبي أفضل الناس بعد الأنبياء لأن الله هذبهم ونقاهم وصفاهم فكانوا من خيرة الخلق، فشرفهم بصحبة النبي الأمين، ورفع ذكرهم في العالمين

قال تعالى{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ }، وقال تعالى{ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}

وفي الحديث " أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ".

قال(**وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ**)

أي بعد العشر التي ظل يدعوا فيها إلى التوحيد عرج به إلى السماء، وهي من أعظم ما حصل للنبي –صلى الله عليه وسلم– في حياته

ويستفاد من حادثة المعراج دروسا عظيما

منها: علو الله –عز وجل– وأن الله في السماء فوق العرش كما أخبر قال تعالى{ءأمنتم من في السماء }، وقال تعالى { الرحمن على العرش استوى }

والعجب كل العجب من قوم يحتفلون بالمعراج ويقولون: الله في كل مكان. وهذا يقتضي أن الله تحت ويختلط بالناس وفي الحواشي وفي أماكن القاذورات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

وللأسف يزعمون أنهم ينزهون الله ويعظمونه، ويسبون من يخالفهم في ذلك ممن يقول: الله في السماء فوق العرش، وهو لم يقل إلا بما قال الله عن نفسه وقال عنه رسوله –صلى الله عليه وسلم–

فالرسول –صلى الله عليه وسلم– سأل الجارية: أين الله؟ قالت: في السماء فقال: أعتقها فإنها مؤمنة.

فتأمل: قد أثبت النبي –صلى الله عليه وسلم– لها الإيمان باعتقادها أن الله في السماء

والرسول –صلى الله عليه وسلم– كان يرفع يديه إلى السماء في دعائه وأمته تفعل ذلك من بعده

فعلو الله ينافي أنه في كل مكان لكن علمه واطلاعه في كل مكان لا تخفى عليه خافيه إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه

ويستفاد منها: مكانة النبي –صلى الله عليه وسلم– ومنزلته عند الله فإذا كانت هذه مكانته عند ربه فلا بد أن تكون مكانته عند المؤمنين عظيمة، فمنزلة النبي –صلى الله عليه وسلم– منزلة عظيمة توجب متابعته وطاعته وعدم مخالفته –صلى الله عليه وسلم–

ويستفاد منها: مكانة الصلاة ومنزلتها فقد فرضت في السماء وهذا دليل على علو مكانتها ومنزلتها فوق كل الفرائض

ومن أعظم الأحداث التي حصلت للنبي –صلى الله عليه وسلم– حادث الهجرة فقد ترك بلده مكة، وهاجر إلى المدينة بأمر من الله تعالى؛ لما لاق من أذى المشركين له، ولمن معه، فهاجروا امتثالا لأمر الله فرارا من الفتنة، وكل ما هو ذريعة إليها

قال تعالى{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً } [النساء: ٩٧-٩٩]. وقال تعالى {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة}، وقال تعالى{ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين}

والهجرة في الله من أعظم العبادات التي تعود على العبد بالخير العظيم في الدنيا والآخرة ، فقد ظفر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بهجرتهم في الله بالفوز في الدنيا بإقامة التوحيد والعدل في الأرض، فقد بلغت دعوتهم المشرق

والمغرب، وأعد الله لهم في الآخرة المنازل العليا والنعيم العظيم

قال تعالى{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }[النحل ٤١]

فالهجرة باقية إلى أن تقوم الساعة بنص هذه الآيات ونص على ذلك مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- .: (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

وهو حديث صحيح رواه أحمد والنسائي وأبو داود وغيرهم

أما قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:" لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ " فالمقصود منه فتح مكة وفيه إشارة إلى أن حكم غير مكة في ذلك حكمها فلا تجب الهجرة من

بلد قد فتحه المسلمون أما قبل فتح البلد فمن قدر على الهجرة وجب عليه ذلك إذا لم يتمكن من إظهار دينه والدعوة إليه

والهجرة هي الانتقال من بلد الشرك أو الكفر إلى بلد الإسلام كما ذكر المؤلف

بلاد الإسلام هي التي تعلوها شعائر الإسلام ويغلب فيها أهله، وبلاد الكفر على العكس تماما هي التي تعلوها شعائر الكفر ويغلب فيها أهله

فالمسلم يجب عليه أن يظهر دينه ويعتز به فأهل الإسلام هم أهل العزة وأهل الرفعة والإسلام يعلو ولا يعلى عليه

قال تعالى{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[التوبة ٣٣]

وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم تفيدنا دروسا وأحكاما عظيمة نلخصها في أربع مسائل

١ - عدم تحكيم العقل مع وجود النص

فالعقل يقول: كيف يحصل النصر والفوز لمن ترك بلده ووطنه؟ فالدين ليس بالعقل إنما هو بالتوقيف والنقل

قال تعالى{ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

قال علي رضي الله عنه "لو كان الدين بالرأي، لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظهره"

٢ - التمسك بالدين والاعتصام به ولو على حساب الوطن

فالتنازل عن شيء من الدين لا يجوز لأحد، وإن اضطر إلى ترك وطنه فليتركه، فقد ترك النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

وأصحابه وطنهم ولم يتنازلوا عن شيء من دينهم، فالأذى في طاعة الله أكرم للعبد من الإكرام مع المعصية، فليحذر الساعون إلى المناصب من مقت الله وغضبه لتنازلهم عن شيء من الدين من أجل الوصول لأغراضهم

قال تعالى{ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا }

٣ - لا ضرورة لفعل المحرم من أجل إظهار الدين أو الدعوة إليه؛ لأن دين الله محفوظ، والدعوة ستقوم بنا أو بغيرنا شئنا أم أبينا، وليس علينا هداية الناس، وإصلاحهم. إنما علينا دعوتهم، والبيان لهم، على طريقة النبي وأصحابه، فإذا عجزنا عن ذلك؛ فالله هو الهادي إلى الحق وإلى صراطه المستقيم، فمن سلك طريق الحزبية ونادى بالشعارات الملتوية

بالدخول في المحرمات ليتوصل إلى تحكيم شرع الله، أو إصلاح الناس بزعمه فقد خسر خسرانا مبينا.

قال تعالى{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }، وقال تعالى{ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ }

فإذا ترك الإنسان وطنه خوفا من الفتن والوقوع في الحرام فأولى أن لا يفعل الحرام من أجل هداية الخلق أو إصلاح المجتمع فقد نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن مداواة الأبدان بالمحرم فكيف بمداواة القلوب لا شك أن يكون النهي أشد وأولى

٤ – الفرار من الفتن

ويستفاد من هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم– الفرار من كل ما هو فتنة أو ذريعة إليها مثل البدع وأهلها، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد ترك وطنه من أجل إظهار الدين، فهجر البدعة وأهلها من باب أولى؛ إذ البدعة قد تلتبس على الناس؛ لما فيها من اشتباه أكثر من غيرها

قال تعالى{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

قال أبو قلابة: " لا تجالسوا أهل الأهواء فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون"

وَتُوُفِّيَ . صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ . وَدِينُهُ بَاقٍ.

وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ.(٤٦)

---

٤٦) **كمال رسالة النبي وتمامها**

وقد أكمل الله لنبيه الدين، وجاءت رسالة الإسلام كاملة تامة لا يعتريها خلل، ولا نقصان، وقد بلغها النبي –صلى الله عليه وسلم– على أكمل وجه، وكذلك بلغها أصحابه رضي الله عنهم، فحفظ الله بهم الدين، فهو محفوظ إلى أن تقوم الساعة، فدين الله صالح لكل زمان ومكان، فخاب وخسر من ابتدع في دين الله شيئا نسأل الله السلامة والعافية.

قال تعالى{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[المائدة ٣]، وقال تعالى{ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ }[النحل ٨٩]، وقال تعالى{ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }[الأنعام ١١٥]

وكمال الدين يستلزم العمل بكماله، وتمامه، فمن ترك منه شيئا فقد أساء، وقصر، ومن زاد فيه فقد ابتدع، وضل، فما من خير إلا وقد دل النبي –صلى الله عليه وسلم– الأمة عليه، وما من شر إلا وقد حذر الأمة منه، فدين الإسلام لا يحتاج إلى تجديد، ولا إحداث، فهو كامل متكامل، فمن أحدث فيه شيئا يراه حسنا، فقد زعم أن النبي خان الرسالة، وحاشاه صلى الله عليه وسلم.

قال النبي –صلى الله عليه وسلم–:" إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا " رواه مسلم وقال –صلى الله عليه وسلم–:" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ "متفق عليه

وكمال الدين دليل على عزته، ورفعته، وأن الكل مفتقر إليه، والذليل من ابتغى دينا سواه، وتحاكم إلى غيره، فهو دين العدل، ودين الرحمة، ودين السماحة، وهو حق كله لا تناقض فيه، ولا خلل، فمن ادعى تناقضا فيه، أو خللا، فهو الذي قد اختل عقله، وانتكست فطرته نسأل الله السلامة والعافية.

قال تعالى{ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }[آل عمران ٨٥]، وقال تعالى{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا }[فاطر ١٠]، وقال

تعالى{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }[النساء ٨٢]

والعمل بكمال الدين يستلزم الاجتماع عليه، وعدم الاختلاف، والافتراق فيه؛ فالتفرق في الدين من نهج المشركين، فينبغي على المسلمين أن يجتمعوا، ولا يشابهوا المشركين في أفعالهم، فدين الله واضح بين؛ لكن أكثر الناس، آثروا الجهل على العلم، والباطل على الحق، واتبعوا السبل فتفرق بهم عن سبيله.

قال تعالى{ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }[الروم]، وقال تعالى{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا }[آل عمران]، وقال تعالى{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ

مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ }[الشورى]، { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[الأنعام]

بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً }[الأعراف: ١٥٨]. وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً }[المائدة: ٣]. وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَوْلُهُ تَعَالَى: { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ }[الزمر: ٣٠، ٣١].

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }[طه: ٥٥]. وقَوْلُهُ تَعَالَى{ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً }[نوح: ١٧، ١٨]. وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَلِلَّهِ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى }[النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }[التغابن: ٧].(٤٧)

---

٤٧) **حق النبي -صلى الله عليه وسلم-**

وحق النبي صلى الله عليه وسلم هو: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهذا هو معنى شهادة أن محمدا رسول الله الذي لا يصح الإسلام إلا به

قال تعالى{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[النساء ٦٥]، وقال تعالى{ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[الحشر ٧]، وقال تعالى{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}[الأحزاب ٣٦]

وحق النبي -صلى الله عليه وسلم- يستلزم محبته، والسير على طريقته، ومنهجه، والناظر في أحوال المسلمين يرى كثيرا من أقوالهم وأعمالهم ما يتنافى مع ذلك، فتراهم يدعون محبة النبي، وهم يناصرون أعدائه إن لم يكن مباشرة، فعن طريق تقليدهم، ونشر أفكارهم، فليس الاتباع والمحبة بالدعاوي، وإقامة الحفلات؛ إنما يكون بالامتثال،

والتمسك، والالتزام، فطوبى لعبد تمسك، وامتثل هدي النبي، والصحب الكرام.

قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:" لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ ".

والنبي –صلى الله عليه وسلم– حقه محفوظ حيا وميتا فقد مات –صلى الله عليه وسلم– كما أخبر سبحانه فقال{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ }[الزمر: ٣٠، ٣١].

فإذا كان أفضل البشر قد مات فلا شك أن الجميع سيموتون فمن علم أنه سيموت فليعلم أنه بعد الموت سيبعث وسيقف أمام الله ويسأل فالبعث والحساب حق من كذب بذلك فقد كفر

فمن عرف حق النبي صلى الله عليه وسلم، فليتأسى به، وبأصحابه، ولا يخرج عن سبيلهم في قليل، أو كثير، وليتحرك كما تحركوا، وليسكن كما سكنوا، وليتنفس كما تنفسوا، وحياته كلها تستقى من حياتهم، ففي ذلك الفوز والنصر والفلاح والنجاة.

قال تعالى{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب ٢١]

صحبته وآله وحقهم

واعلم أنه ينبغي معرفة أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وآله لمن أراد معرفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأنهم هم المبلغون عنه الموصلون الشريعة لمن بعدهم، فمن لم يعرف الإسناد لم يعرف الدليل، ومن طعن في الإسناد طعن في المنقول عنه، فالأصل فيمن كانوا مع النبي صلى الله

عليه وسلم العدالة والإتقان إلا ما استثنى بدليل صحيح صريح.

قال تعالى{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }

وصحابة النبي –صلى الله عليه وسلم– هم خير الناس، وأفضلهم، فبهم حصلت الخيرية لهذه الأمة، وإلا كيف تتحقق الخيرية لهذه الأمة بأناس أكثرهم منافقون قد خانوا نبيهم، ولم يسلم منهم إلا عدد قليل بزعم الروافض الأنجاس الأرجاس قبحهم الله، وطهر الأرض منهم، ومن أمثالهم.

قال تعالى{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم، وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه، فهو الخليفة الأول الذي لم يقم الدين، والعدل في زمن بعده كما أقيم في زمنه رضي الله عنه، وهذا دليل من أعظم الأدلة على فضله، وعدله، وحسن اتباعه لنهج النبي صلى الله عليه وسلم.

فكان رضي الله عنه من أقوى الصحابة قلبا وثباتا لا يخاف في الله لومة لائم، وهو أول من أوذي في الله بعد النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأول من دافع عن النبي وبذل ماله لنصرة الإسلام فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين

ومن حياة أبي بكر رضي الله عنه نستفيد دروسا، وأحكاما منها: حسن الصحبة، فكان رضي الله عنه أحسن صاحبا

للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وبذلك حصلت له الفضيلة، ولم يذكر في القرآن صاحبا للرسول –صلى الله عليه وسلم– سواه، وجاء مقرونا مع النبي في أية واحدة أربع مرار

قال تعالى{ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}

ويستفاد من حياة أبي بكر –رضي الله عنه–: الحرص على ملازمة اتباع النبي –صلى الله عليه وسلم–، وملازمة صحبة العلماء لمعرفة الحق، والخشية من الزيغ والوقوع في الضلال، فقد كان –رضي الله عنه– ملازما للنبي –صلى الله عليه وسلم– يتعلم منه، ويدفع عنه الأذى، ويناصره، وكان

يخشى أن يترك شيئا من أمر النبي –صلى الله عليه وسلم – فيزيغ

قال –رضي الله عنه– "لست تاركا شيئا كان رسول الله –– –صلى الله عليه وسلم– يعمل به إلا عملت به فإني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ"

وعمر رضي الله عنه: هو الخليفة الثاني، وهو الفاروق الذي كان إذا سلك فجا سلك الشيطان فجا أخر، وقد حصل على يديه من الفتوحات العظيمة التي لم يكن مثلها بعده، فهو من خيرة الصالحين الصادقين شهد بدرا، وقد جعل الله الحق على لسانه وقلبه، وهو المحدَّث الملْهَم –رضي الله عنه–.

قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–(قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ)

وقال -صلى الله عليه وسلم-(إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه)

وعثمان -رضي الله عنه-: هو الخليفة الثالث ذو النورين صهر النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي تستحي منه الملائكة كتب القرآن ونسخه في المصاحف ، وهو الذي حفر بئر رومة، وجهز جيش العسرة، فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين

قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-(ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)

وعلي -رضي الله عنه-: هو الخليفة الرابع ابن عم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وصهره تربى في بيت النبوة، وكان من شجعان الصحابة، ولم يفارق أبا بكر في وقت من الأوقات، ولم ينقطع عن الصلوات خلفه رضي الله عنهم أجمعين

وقد روي عنه –رضي الله عنه– من وجوه كثيرة أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

فرضي الله عن الخلفاء الراشدين وعن الصحابة أجمعين

فمن أراد معرفة النبي –صلى الله عليه وسلم– فليعرف منزلة الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة الطيبين الطاهرين ومنهم زوجات النبي –صلى الله عليه وسلم– وعلى رأسهم عائشة –رضي الله عنها– العفيفة الطاهرة الصديقة بنت الصديق الفقيهة العالمة الجليلة –رضي الله عنها– وعن الصحابة وزوجات النبي أجمعين

قال تعالى{ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}

وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ }[النساء: ١٦٥].

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ }[النساء: ١٦٥].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ } [النحل: ٣٦]. وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ . رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ. وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ؟ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ؟ [البقرة: ٢٥٦]. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا اله إِلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ).

وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى اله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.(٤٨)

---

٤٨) الأمر الذي من أجله بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن سبقه من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-

وما من نبي إلا وقد بعثه الله بالدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، والأنبياء جميعا دينهم الإسلام، والله لا يقبل دينا سواه، فدين إبراهيم، وموسى، وعيسى، هو الإسلام، والأديان السماوية كلها دين واحد، وهو الإسلام.

قال تعالى{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ }، وقال تعالى{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ }، وقال تعالى{ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ }، وقال تعالى{ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }، وقال تعالى

مخبرا عن رسالة سليمان –عليه السلام–{ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }

فالإسلام دين شرعه الله للخلق من أولهم إلى آخرهم؛ ليتعبدوا به لله وحده، وهو دين يدعوا إلى عقيدة واحدة، وهي إفراد الله بما هو له من الربوبية، والألوهية، والأسماء، والصفات، وقد أرسل به الأنبياء حجة على العالمين

قال تعالى{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ }، وقال تعالى{ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا }

أول هؤلاء الرسل نوح –صلى الله عليه وسلم– وآخرهم محمد –صلى الله عليه وسلم–

ويدل على أن أول رسول هو نوح حديث الشفاعة الذي في الصحيحن أن آدم يقول لهم:" اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا "

وهذه الرسل كلها بعثت من أجل هذه الرسالة رسالة الإسلام التي أصلها عبادة الله وحده واجتناب الطاغوت

وافترض الله على جميع العباد ذلك.

والطاغوت هو: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع

والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة، إبليس لعنه الله، ومن عبد وهو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله

إبليس معروف وهو رأس الكفر

ومن عبد وهو راض هذا لا شك في كفره لأنه ارتضى الكفر

ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه فلا شك في كفره لأنه قد جعل نفسه إله مع الله

ومن ادعى شيئاً من علم الغيب فلا شك في كفره لأنه ادعى حق الربوبية والألوهية

ومن حكم بغير ما أنزل الله أي تعبدا بذلك فلا شك في كفره لأنه قد اتخذ مشرعا غير الله وضاه شرعه بشرع الله،

فمن أجاز الحكم بغير ما أنزل الله أو ساواه بحكم الله فقد كفر بالله لأنه استحل ما حرم الله

قال المؤلف:" والدليل قوله تعالى{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ

فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا ، وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : ٢٥٦] وهذا هو معنى لا إله إلا الله .

وفي الحديث "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ""

أي: هذا هو الدليل على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده، وأن لكل أمر رأس فرأس الأمر الإسلام بنص الحديث وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله

ثم ختم المؤلف هذه الرسالة العظيمة برد العلم إلى الله والصلاة على النبي وآله وصحبه

وبهذا قد انتهت هذه الرسالة نسأل الله أن ينفعني بها وينفع بها أبنائي وجميع المسلمين، وكان الانتهاء يوم السبت الثاني عشر من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة وألف

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

وكتب

أبو يوسف جميل بن محمد البساتيني المصري

فهرس